

لَمَّا تَعَرَّفُوا  
أَبِي

الكتاب: حين لم تعد أُمي

المؤلف: سارة العبادي

التصنيف: رواية

الناشر: دار ملهمون للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى: يناير 2022

التصنيف العمري: E

تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام.



الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN: 978-9948-458-41-8

إذن طباعة: MC-10-01-7209460



جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لملهمون للنشر والتوزيع، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي من ملهمون للنشر والتوزيع.



الطباعة: مطابع Ömür Matbaa - تركيا +902124227600



darmolhimon



www.darmolhimon.com



0097143460891



Darmolhimon | UAE, Dubai,

Silicon Oasis | Park Avenue

Building, Office 405

سارة العبادي

# الحسين لمن تعبر أحبي



## رسالة لمن قرر أن يبدأ الرحلة :

ما توشك على قراءته هو عُصارة جلسات مطوّلة مع أصحاب القصة، قبل صلاة الجمعة، وبعد غداء السبت، جلسات تخلّلها الكثير من أكواب القهوة التركية، وأوراق الملاحظات المشخّطة، وتسجيلات صوتية غير مرتّبة.

هذه القصة، رُوِيَتْ لي من أصحابها شخصياً..

أقرباؤهم، من سمعوا بها، ومن عرفوا عنها، من "أبوصالح" و"أم عثمان"، من "عبد الله" و"نعمة".

لم أحاول إضافة تفاصيل، أو تغيير أخرى، وَجَبَ عليّ المحافظة على محتواها كما هو، قد أكون غيرتُ أسامي الأشخاص، والأماكن، وبعض التواريخ، ممّا لم يؤثر في محتوى القصة إطلاقاً. لذلك عزيزي القارئ، عزيزتي القارئة، رسالتي لكما أن تقرّأها بعمق، تخيلاً مشاعرهم، وردّات أفعالهم، فهم جميعهم شخصيات حقيقية، وليسوا من وحي خيالي.

أيها القراء.. إنْ فشلتُ في إيصال ذلك لكم عبر كلماتي، فأنا واثقة من أنكم ستستطيعون رؤيتها بمخيّلتكم.

تحياتي

سارة العبادي



## إهداء خاص

إلى جدي "رحمه الله"،  
وجدتي "أطال الله في عمرها"  
إهداءً أخيراً  
إلى فلذة كبدي.. شيخة.



"يوسف! يوسف! استيقظ! أنت تحلم مرة أخرى." .  
سمعتُ صوت زوجتي تتأديني، لا يوجد غير صوتها هو  
الوحيد الذي يستطيع إخراجي من تلك الكوايس المزعجة التي  
تلاحقني أشباحها كل ليلة، أشباح الماضي الذي لا أستطيع نسيانه!  
طفولتي المُسْتَنَّة.. ضياعي عن أمي.. تنقلي بين البيوت للعمل؛ لأجل  
لقمة العيش، وما عشته، ورأيته في كل بيت، كلما أغمض عيني لأنام،  
تلاحقني كل تلك الكوايس؛ حتى بعد أن كبرت، وأصبحتُ أباً لخمسة  
أبناء، أستيقظ غارقاً في عرقي، وزوجتي بجانبني تقرأ عليّ القرآن  
لتهدئني.

وللقصة بقية...





## جزيرتي والمعسكر

في كلِّ صباح، وقبل طلوع الشمس، تمسك أُمي بيدي، وتنزل سويًّا من أعلى الجبل حتى أسفل الوادي، ثم تنجّه نحو شاطئ البحر، حيث يقطن مئات الرجال فيما يشبه المعسكر، أو ما يشبه قرية صغيرة مختلفة تمامًا عن مكان سكننا.

كانوا جميعًا يلبسون بدلات رسمية متشابهة، لم تكن أشكالهم تبدو مثلنا، إلا أن لونها مختلف، ولغتهم مختلفة، لا نفهمهم، ولا يفهموننا، ولكنهم كانوا يوفِّرون لنا ما نحتاج من طعام وشراب، فكانت أُمي تتركني معهم، وتغادر، لا أدري إلى أين، وكنت أعرف أنها ستعود قبل غروب الشمس لتأخذني ونعود إلى البيت.

لم أكن وحدي، بل عشرات الأطفال مثلي، هم فقراء لم تستطع أمهاتهم أن يوفِّرنَ لهم قوت يومهم، فيأتون بهم إلى هذا المعسكر كل صباح، ليوفر جنود المعسكر لنا فقط ما يرمُّ أجسادهم، ويُسكِت جوعهم، وبالمقابل يقوم الأطفال الأكبر عمرًا ببعض الأعمال.. كنقل أسلحة الجنود، وترتيب الغرف ودورات المياه، وغيرها من الأعمال التي لا يرغب الجنود بالقيام بها بأنفسهم.

وإن كان الجنود في مزاج جيّد، فنحصل على بعض التعليم الأساسي، وكنتُ صغيرًا في ذلك الوقت، فلم أكن تجاوزتُ الثالثة من العمر، ولم أكن أستطيع أن أفهم ما يقوم الجندي العجوز بتدريسه للأطفال، بل أحاول فقط أن أردد وراءهم؛ خوفًا من أنني لو لم أفعل،

فسوف لن يُسمح لي بالقدوم إلى هنا مرة أخرى.

كنتُ أقضي وقتًا جيّدًا، ألعب مع الأطفال الذين في مثل عمري، أو أصغر مني، نراقب تدريبات الجنود عن بُعد، نجمع بقايا الرصاصات الفارغة، ونتخيّل أنها كنز يخبئها بعضنا لبحث عنها البعض الآخر، حتى تُقارب الشمس على الغروب، فنصطفُ أمام باب المعسكر في انتظار أمهاتنا، وحين نراهن يقتربن من بعيد، يركض كلُّ منا نحو أمه، ونعود إلى بيوتنا.

كانت تلك هي حياتنا المعتادة التي نعيشها، ومضت أيام، وأيام حتى حدث شيءٌ غريبٌ، فقد جاء اليوم الذي لم تعد أمي فيه، حيث لم أرها تقترب مع باقي الأمهات! ركض الأطفال.. الواحد تلو الآخر نحو أمهاتهم، ورحلوا بعيدًا، وبقيت أنتظر وحدي في مكاني أمام باب المعسكر! وقفت متسمّرًا، ورفضتُ الدخول بالرغم من إلحاح الجنود عليّ، فكنتُ أراقب الشمس تودّعني، وترحل خلف الجبل، حاولت أن أقول لها أن تنتظر قليلًا فأمي لم تعد بعد، ولكنها لم تستمع لي.

رحلت الشمس، وتركت السماء مظلمة، وما زلت أنتظر مكاني حتى بدأت قدمي تؤلماني، فجلستُ وضممتُ قدمي نحو صدري، وبقيتُ هناك حتى انطفأت جميع أضواء المعسكر، وغطتُ الجميع في نوم عميق، لكنني حاولت جاهدًا أن أبقى مستيقظًا حتى أستطيع رؤية أمي حين تعود، إلا أن التعب كان أشدّ مني، فخارت قواي، واستسلمتُ للنوم.

فتحتُ عينيّ، ورأيت وجوهًا مختلفة تحملق بي، يهزّني



أحدهم، ويمسح على رأسي الآخر، ويحركون شفاههم بكلام لا أفهمه، أراهم يتحركون جميعاً يميناً ويساراً، نظرتُ خلفي، فرأيتهم قد حزموا أمتعتهم، واستعدوا للرحيل، لا أدري إلى أين، ولا متى، أسألهم ولكنهم لا يفهموني، اقتربوا مني، يشيرون إليّ أن أرحل معهم! وأنا أشير لهم بأن بيتي فوق الجبل، أحاول أن أقول لهم إن أُمِّي ستأتي قريباً؛ وللأسف لم يستمع إليّ أحد.

بدووا في ركوب قوارب صغيرة حتى تأخذهم إلى سفينة عملاقة تنتظرهم بعيداً في البحر، خفتُ أن أبقى وحدي هنا، فكرت ماذا لو لم تعد أُمِّي؟! كيف أعود إلى المنزل؟! ولكنني خفتُ أيضاً أن أرحل مع هؤلاء الغرباء، فلا أعرف أين يذهبون، وهل سيعودون إلي هنا، أم هو ذهاب دون عودة؟

اقترب مني أحدهم.. ابتسم وأشار إلى السفينة، يطلب مني القدوم معهم، وأمسك بيدي يقودني إلى البحر، قاومت يده، ثم أشار إليّ بابتسامة إلى القوارب، حينها وقفتُ جامداً، خائفاً أرتجف في مكاني، لا أدري هل أبقى واقفاً، أم أرحل مع هذا الغريب؟!

مشيت معه، وأنا أنظر إلى الخلف آملاً أن أرى أُمِّي تظهر لي من خلف الكتيبان الرملية على الشاطئ دون جدوى، كنتُ أشدّ بيدي محاولاً العودة، ولكن الجندي نظر إليّ بحزن، ثم أشار إلى السفينة بابتسامة، فلم يكن لديّ خيارٌ إلا أن أبقى وحدي على الشاطئ، أو أصعد معه القارب الصغير لأذهب إلى السفينة، وقد بقيت عيناى تنظران بوجع، وقلق، وارتياب إلى الجزيرة؛ حتى بدأت السفينة بالإبحار، وأصبحت تبعد تدريجياً عن الشاطئ وتزداد نبضات قلبي



خوفًا، ويأسًا، إلا أنني بقيت أنظر إلى تلك الجزيرة، وأنتظر رؤية وجه  
أمي؛ ولكن الجزيرة بدأت تصغر شيئًا، فشيئًا حتى اختفت في لمح  
البصر، ولم أعد أراها.

\*\*\*\*\*



## إلى مدينة أخرى

أبحرنا طويلاً، كل ما كنتُ أراه هو اللون الأزرق يحيط بنا من كل جانب، وطوال وقتي على السفينة كنتُ أحاول أن أفهم ما يقوله الجنود حين يحاول البعض الحديث معي، فكان بعضهم يعاملني بلطف، يبتسم لي أو يحاول إطعامي، ولكن البعض الآخر كان مخيفاً، ينظرون لي كأنني عقبة في طريقهم، يدفعونني ليبعدوني عن طريقهم، يتكلمون، ويشيرون نحوي بغضب.

كنتُ أحاول أن أبقى هادئاً، ومختبئاً بعيداً عن الأنظار، وأحاول أيضاً أن أساعد -إن استطعت ذلك- ولكني لم أستطع أن أتوقف عن التفكير بأُمي ولا كيف سأعود إليها، فعيون أُمي ونظرتها ما زلت راسخة في عقلي، بل وتسيطر على كياني.

وصلنا إلى الشاطئ في صباح يوم جديد، حيث أيقظني الجندي الطيب نفسه الذي أمسك بيدي، وأدخلني السفينة، وبعد محاولات طويلة فهمتُ أن اسمه "فرانك"، نزلنا في الميناء، ونظرتُ حولي، فرأيتُ الكثير من السفن المختلفة الأحجام والأشكال بعضها كبيرٌ جداً أكاد لا أرى قممتها، والآخر صغيرٌ كالقوارب التي يستخدمها الآباء ليصطادوا السمك في جزيرتي التي خرجت منها، رأيتُ أناساً كثيرين، يتحدثون.. يصرخون.. يبيعون الأسماك.. ينزلون الأمتعة من السفن، ويملؤون غيرها بأمتعة جديدة، يخيطون الشباك، ويعدون الصنابير، ورأيتُ أطفالاً يركضون، رجالاً يتشاجرون، فالكثير من



البشر حولي، ، لم أر في حياتي أعداداً كهذه الناس، بعكس جزيرتنا التي كانت صغيرة جداً.

مشينا جميعاً في صف واحد، وجميع من حولنا كان ينظر إلينا نظرات تحمل الغضب والكُره، فلم أعرف حينها لم ينظر الجميع إلى هؤلاء الجنود بكل تلك النظرات العاتبة والخائفة، وكلما اقتربنا من مجموعة، صمت الجميع، والبعض ينظر إلينا، والآخر يحيد بنظره بعيداً!

وبعد مَشْيي، ونظرات مشبَّعة بالحقد، وصلنا إلى ما يشبه المعسكر، كالذي كان في جزيرتنا؛ ولكنه كان أكبر بكثير، حيث توزع الجنود يميناً ويساراً يفرغون حقائبهم في الغرف المخصصة لهم. لقد بقيت خلال المَشْيِ أسير مع "فرانك"، فلا أفارقه أبداً، وكان الخوف مسيطراً على أفكاري من أن أضيع مجدداً، كوني في مكان غريب، ولا أعرف غيره، ولم يكن عندي حقائب ولا أمتعة، جلستُ على طرف السرير المخصَّص لـ "فرانك"، أراقبه وهو يفرغ حقائبه، حينها دخل الغرفة أحد الجنود وهو يصرخ، ويسلم على "فرانك" كالذي يرحب بقدومه، ثم أشار "فرانك" نحوي، فاقترب الرجل مني، وسألني:

- "ما اسمك؟"

فرحت حين فهمتُ أخيراً ما يقوله الرجل؛ ورغم ذلك لم أستطع إجابته، لم أكن أعرف ما اسمي! أعرفه، ولكنني لم أستطع أن أقوله له، حاولت النطق ببعض الأحرف، دون جدوى. وكل ما كنت أقوله كان يجول في عقلي، ولا يخرج أيّاً منه على شفّتي، نظر إليّ



الرجل، وقال:

- "سُنْسَمِيكَ يوسُف".

ثم اقترب مني، وحاول أن يمسك بيدي، خفتُ وابتعدتُ عنه، بل انكشيتُ بعيداً، فاقترب "" فرانك "" مني يهدئُ من رُوعي، ويهزُّ رأسهُ.. أن ليس عليَّ أن أخاف، ويشير إلى الرجل، ويحاول أن يخبرني بأنه صديقه!

أشار الرجل إلى نفسه، وقال: " أنا عمر".

ثم أشار إليَّ، وقال: "أنت يوسف".

ومنذ ذلك اليوم والجميع ينادونني "يوسف"، و البعض ينادونني "جوزيف"، فهي الطريقة الأجنبية لنطق اسمي، وآخرون كانوا يختصرونه لينادوني "جو".

لقد كانت حياة الجنود متشابهة كلَّ يوم، ففي كلِّ صباح يقومون بالأعمال نفسها في الأوقات نفسها..

يتناولون الإفطار.. يقومون بالتدريبات الصباحية كالجري حول المعسكر، والزحف تحت الحبال، وتسلق الجدران، ثم يخرجون في جولات خارج المعسكر، ويمشون حول المدينة في صفوفٍ مُرتَّبةٍ، يراقبون السكان!

\*\*\*\*\*



## بين المعسكر والمدينة

مرت الأيام وأنا في المعسكر، أكل ممًا يأكلون، وأنام أينما ينامون، وكانت تعتنى بي نساء الجنود، وكأني أحد أبنائهم، فكانت الحياة داخل المعسكر مختلفة تمامًا عما هي في الخارج، ففي بقية المدينة كنت لا أخرج كثيرًا إلا في أحيان قليلة حين يوافق "فرانك" على أن يأخذني بالجولات التي يقوم بها الجنود، فينشرون النظام، ويفضون الاشتباكات بين السكان.

فهمتُ أن "فرانك"، وأصدقاءه كانوا أشبه بالشرطة، أو بالحكومة في المنطقة، فالجميع من حولهم يحترمونهم ويقومون بما يطلبونه منهم، ولكني لا أظن أن سكان المدينة يحبون "فرانك"، وأصدقاءه، فهم يسرعون بالدخول إلى بيوتهم حين يروننا نتقرب منهم، ولم أفهم لماذا، سألت "فرانك" مرات عديدة ما سبب ذلك، فكان يجيبني بإجابة لا أستطيع فهمها!

عشتُ ثلاث سنوات في المعسكر والمدينة حتى أصبحت في السادسة من عمري، واستطعت أن أفهم ما يقوله لي "فرانك"، واستطعت أن أتكلم معه بحرية أكثر، لقد علمني الأحرف الأبجدية، والأرقام، وتعلمت بدائيات الحساب، وحين كنت أجيب إجابة صحيحة، كان "فرانك" يكافئني بأن يعطيني قطعة حلوى إضافية.

خاطت لي إحدى السيدات لباسًا صغيرًا يشبه لباس "فرانك" وبقية الجنود، وأصبحت أشعر بأنني واحدٌ منهم، يناديني



بعضهم (الجندي جو)، كم كنت أحب ذلك اللقب! كنتُ بين يومٍ وآخر، ألتقي بأناس كثيرين من أهالي المدينة التي كنا فيها، مثل العم رجب بائع الشاي، والسيدة سمارة بائعة القماش، وغيرهما ممن يترددون على المعسكر كثيرًا يبيعون منتجاتهم للجنود، وكانوا يشبهوني في لونهم وشكلهم أكثر من "فرانك" وبقية الجنود، فأعينهم ليست زرقاء، وشعرهم ليس أصفر. وفي إحدى المرات سألتني العم رجب يومًا ما، ما الذي أفعله ومنذ متى أنا أعيش هنا، فلم أكن أعرف كيف أجيبه حينها.. غير أن هذا المكان هو البيت الوحيد الذي أعرفه، لم يقتنع بكلامي، وظل يقنعني بأن عليَّ الخروج من هنا، فهؤلاء - يقصد "فرانك" وأصدقاءه- يحتجزونني رغم إرادتي وأنتي لا أنتمي لهم أبدًا، أخبرته بأني لا أعرف أحدًا غيرهم، وأنهم يعتنون بي منذ صغري، وهم العائلة الوحيدة التي أعرفها:

- "الجميع هنا يعتنون بي، لمَ تقول إنهم أشرار؟!".

- "إنهم جنود احتلال يا يوسف، يأتون إلى بلادنا، يبنون معسكراتهم من عرق جبيننا، يأكلون أكلنا، يحكمون بلادنا كما يريدون دون أيِّ وجه حقٍّ، انظر إلى ما فعلوه معك.. يحتجزونك رغم إرادتك، يعلمونك لغتهم. ودينهم، وربما لو تركتُك هنا لأصبحتَ واحدًا منهم تحارب بلادك معهم، كلال! لن أسمح بذلك أبدًا".

فلم أفهم، لمَ يقول عنهم هكذا، في الوقت الذي أراه يضحك معهم، ويتبادل معهم الفكاهات حين يبيعهم الشاي، ولم أفهم أيضًا لمَ يكرههم لهذه الدرجة، فلم أرَ منهم إلا كلَّ حبٍّ.



بعد جلسات مطوّلة مع العم رجب، أقتعني بأن عليّ أن أترك المعسكر وأرحل معه، حيث سيرشدني لأعيش مع عائلة في الريف، عائلة حقيقية تتكون من أب، وأم، وإخوة، سيعتنون بي.. وفي المقابل عليّ أن أساعدهم بأعمال الزراعة، ورعي الأغنام، لقد حدّثني مطوّلاً عن جمال المكان هناك، حيث إن الجنود لم يصلوا إلى هناك، ولم ينصبوا معسكراتهم المخيفة بعد؛ ولأنني كنت في السادسة، أو على مشارف السابعة من العمر سأستطيع أن أعمل معهم، وربما سيعطونني أجرًا على أعمالي، وبعد حوار طويل استطاع العم رجب إقناعي بأن فكرة ترك المعسكر هي الفكرة الصائبة.

لا أزال صغيراً على أن أتخذ قرارات مصيرية في حياتي، و لكن بدا لي العم رجب متأكداً ممّا يقول، فهو بالنسبة لي رجل كبير في العمر، فمن المؤكد أنه يعلم أكثر مني. كنتُ مشتتاً بين حبي لـ "فرانك"، وشعوري بالأمان هنا، وبين كلام العم رجب، ورغبتني في العيش مع عائلة، أقتعني في ذلك الوقت، ووافقت على الذهاب.

وفي اليوم المتفق عليه، جلس معي بعد أن فرغ من بيع الشاي، واتفقنا على أنه سيأتي ليأخذني من هنا في المساء بعد نوم الجنود، وكل ما عليّ فعله هو انتظاره عند بوابة المعسكر، وأهمّ ما عليّ فعله هو عدم إخبار أحد بهذه الخطة؛ لأنهم سيمنعونني من الذهاب بكل تأكيد، فلم أعترض، بل أتبعْتُ الخطة كما وصفها، وجهّزْتُ حاجياتي في المساء دون علم "فرانك"، ثم تسللْتُ إلى خارج بوابة المعسكر، وانتظرتُ العم رجب هناك، وبعد ساعات من الانتظار، رأيت فانوسه يقترب من بعيد، وجاءني وأجلسني على حماره، وانطلقنا إلى حيث



يريد أخذي، نظرتُ خلفي، وودّعتُ المعسكر كما ودّعتُ الجزيرة قبل  
سنوات، ثم أغمضت عيني ونمت.

\*\*\*\*\*



## حياة الريف

اتضح لي أن لَدَى العم رجب أهدافاً أخرى دفعته لأخذني من المعسكر، ليس لإنقاذي من العساكر فحسب، بل ليسدّد أحد ديونه، فقام بتسليمي لإحدى عوائل الريف؛ لأعمل لديهم، ويتلقّى هو مبلغاً من المال!

كان واجبي لدى تلك العائلة أن أرعى جَمَالهم، وماشيتهم.. أطعمها.. أغسلها، أنظّف الحظيرة.. أحلب النُوقَ، وأعتني بالخرفان، أطعم الدجاج وأجمع البيض، ثم أحصل على وجبة واحدة في اليوم! كانت عبارة عن الخبزة مع الحليب، وأنام في طرف الحظيرة. كنت أكافأ حين أعمل عملاً جيّداً، وأعاقب عقاباً شديداً حين أخطئ!

لذا، أنا أنجزُ أعمالِي دائماً، وأنا خائف من أن أقصّر في أيّ شيءٍ، وأتلقّى العقاب الذي أخافه.

مضت الأيام والشهور، وأنا أعمل وأعيش عند تلك العائلة التي لم أشعر للحظة بأنها عائلتي، كَبُرْتُ، وتعلّمت الاعتماد على نفسي، وفكّرتُ في أنني سأترك تلك العائلة في أقرب وقت ممكن، كنت أذهب في أوقات فراغي وأساعد أهالي القرية في أيّ أعمال يحتاجونها لقاءً أيّ أجرٍ؛ حتى لو كان بسيطاً، وكنت أعاون السيدات كبار السن في حمل بعض الأغراض لقاءً تفاحة، أو خبزة، فأذهب لأحضر ماءً من النهر، وأحمله لمن يطلب مني لقاءً ديناراً أو دينارين،



كنت أصرف القليل من النقود، وأدّخر الكثير؛ أملاً في أن أستطيع أن أخرج من هذا المنزل، وأعود للمعسكر الذي تركته قبل سنوات فهو المكان الأقرب للمنزل بالنسبة لي. كنت أقضي الليالي وأنا أعدُّ ما جمعت من مال، وبجانبي صديقي "الجَمَل محروس" الذي شهدت ولادته ومن يومها كبرنا معاً، وأصبحنا لا نفترق.

"أنت الوحيد الذي سأحزن عليه إن تركتُ هذا المنزل يا

محروس!"

مضت السنوات لأجد نفسي قد أصبحتُ في العاشرة من عمري، طردني الرجل الذي كنت أعيش عنده، ذلك الذي كبرتُ بين أولاده قائلاً: إنه لم يعد يقوى على تحمُّل مسؤوليتي إلى جانب أولاده، لم أفهم.. "كيف هو الذي لم يعد يقوى"، وأنا الذي كنت أقوم بجميع الأعمال دون أيّ مقابل لسنوات.. راضياً بخبزة، وكأس من الحليب! لكنه - رغم هذا كله الذي قدمته دون مقابل - طردني وهو

يعلم أنه لا مكان لي لأذهب إليه!

لم يعد لديّ أيّ خيار إلا أن أبحث عن المعسكر، أو بالأخصّ، عن "فرانك"، كنت أبحث، وأسأل الأهالي عن المعسكر الذي تركت فيه "فرانك"؛ والكل ينظر لي ناكراً سؤالي، حتى العم رجب، لم أره منذ تركته قبل أربع سنوات في الليلة التي سلمني فيها لتلك العائلة، فسافرتُ إلى المدينة بصحبة مجموعة من العمال حين سمعنا عن بعض الأعمال التي من الممكن إنجازها في الميناء، كنت بحاجة إلى العمل، ولكنني بحاجة أكثر إلى أن أذهب إلى الميناء، وأسأل عن معسكر الجنود؛ ولكن كان ذلك دون جدوى!



وفي يوم من الأيام كنت أمشي في القرية، حاملاً أمتعة "العمة أنيسة"، سيدة عجوز لطالما عطفت عليّ، وأعطتني ملابس وطعاماً كلّما ساعدتها في أيّ شيءٍ، وفي ذلك اليوم بالذات، لمحت مجموعة من الرجال يلبسون البدلات العسكرية.. يقفون أمام الخباز، ويشترون الخبز، حينها تجمّدتُ في مكاني، وأردت أن أركض نحوهم لأسألهم عن "فرانك"، ولكن السيدة أنيسة منعتني، وجرتني إلى منزلها:

- "ما الذي تريده منهم، ابتعد عنهم هم ليسوا منا؟!"

- "ولكنني أعرف أحدهم، لقد اعتنى بي في صغري."

- "كيف ولماذا يا ولدي، هل أنت متأكد؟!"

- "نعم يا عمة، دعيني أذهب إليهم أرجوك. أريد أن أسألهم

عن "فرانك".

وبعد الترجي، تركتني أذهب، كانوا خمسة عساكر يتكلمون ويضحكون، وبأيديهم الخبز، وأكواب الشاي، اقتربت ببطء، ولم أكن أعرف ماذا سأقول وكيف سأشرح لهم، فأنا لا أتكلّم لغتهم.... رفعتُ يدي مصافحاً، وبعد نظرات الاستغراب مدّوا لي أيديهم واحداً تلو الآخر، ثم عادوا ليكملوا حديثهم، ولكنني بقيت واقفاً في مكاني حتى عادوا لينظروا إليّ، حينها حدثني أحدهم، ففهمتُ أنه سألني عمّا أريد من وقوفي معهم..

قلت اسم "فرانك"، ثم أشرتُ إلى نفسي، وقلت "جو"

"جوزيف"!

لم يفهمني أربعة من العساكر، ثم قلت مرّة أخرى: "جوزيف!"

أنا جوزيف، جو" ثم ابتسموا جميعهم! واقترب مني أحدهم "وهو



يقول كلامًا كثيرًا، ومن بينه اسمي "جو"، ففهمت أنني وصلت للمكان المطلوب أخيرًا، فأشاروا إليّ أن أذهب معهم، ولكنني كنت أريد العودة لأودّع محروسًا!

خفتُ إن عدتُ إليه أن أضيع ثانية، ولا أستطيع إيجاد "فرانك" والمعسكر، فذهبت مع العساكر للمرة الثالثة تاركًا ورائي سنوات من حياتي بلا وداع والأهم، تاركًا محروسًا!

\*\*\*\*\*

## المعسكر مرة أخرى

كبرتُ في المعسكر كواحد من العساكر، حيث دَبَّرَ لي "فرانك" جواز سفر باسمي "يوسف سليمان"، ولم أكن أعرف حين ذلك أنه لم يكن اسمي الحقيقي؛ لأنه الاسم الوحيد الذي كَبُرْتُ وأنا أعرفه، كنت أتلقَى التدريبات العسكرية صباحًا، ثم أجلس مع "فرانك" ليعلمني القراءة والكتابة، وبعض علوم الحساب البسيطة.

وفي هذا الوقت أصبحت أستطيع التحدُّث بلغتهم الأجنبية بطلاقة، وخلال وقت فراغي أصبحتُ أخرجُ إلى المدينة، وأبحث عن أيِّ عملٍ أستطيع أن أحصل منه على أجر، وبعد أن أصبحتُ في السادسة عشرة، استطعتُ أن أعمل في المعسكر كسائقٍ إحدى سيارات النقل، أنقل الأغراض، والمُعَدَّات من وإلى المعسكر.

كانت أيامي في المعسكر تتأرجح ما بين الحلوة والمُرَّة، كنت أسعد حين أتعلم شيئاً جديداً، وأشعر بأنني في أفضل مكان لي، ولكن حين يقوم أحد الضباط بإهانتي، أو ضربني، أو يطلب أحدهم من ذوي الرُتَبِ العالية طلبات تعجيزيةً مني فقط ليتسنى لهم عقابي، أو حبسي دون طعام، أتمنى لو أن لي مكاناً آخر أستطيع الذهاب إليه غير هذا المكان.



لذلك، وبمجرد استطاعتي ادّخار مبلغ لا بأس به من المال، استغللتُ الفرصة، وأجرتُ غرفةً أعيش فيها بالمشاركة مع رجلين عازبين، أحدهما مدرس في إحدى المدارس المحلية، والآخر مثلي يتنقل بين الأعمال ليكسب قوت يومه.

\*\*\*\*\*



## شقاء لأجل عائلة!

كانت حياتي صعبة، فأنا أعمل طوال الوقت، وأدّخر معظم ما أتقاضاه بعد أن قررتُ أن أتزوَّج، وأبدأ بتكوين عائلة لي، وهو الشيء الذي حُرمت منه طيلة حياتي.. والذي افتقدته كثيرًا.

قيل لي إنني لا أستطيع الزواج، فأنا لا أملك المال الكافي كي أدفعه مهرًا، وأفتح بيتًا لي، ولمن أردتها لي زوجة! والشيء الآخر الذي يُصعبُ الزواج عليّ هو أنه ليس لي عائلة، فلا أعرف من هم أهلي، ولا لمن أنتمي؟! فهذا الذي سيمنع أية عائلة من أن تقبل زوجي من ابنتهم؛ ولكني لم أياسُ أبدًا، وبقيتُ أجتهد، وأعمل طيلة اليوم؛ كي أستطيع تحقيق مرادي.

حين أُخبرتُ زميلي في العمل برغبتني في الزواج، قال لي: إنه يمكن أن يزوّجني ابنته، إذا حصلتُ على مبلغ كافٍ من المال، وأنه لا يكثرُ بعدم معرفتي بأهلي، طالما أنه يعرف أخلاقي جيدًا.

- "أنا يا يوسف، ما يهمني هو أن أضمن لابنتي الحياة الكريمة، فلا يهمني إن كان لديك أب أو أم، ولكن الأهم هو أنك تجني ما يكفي من المال لتدفعه مهرًا لابنتي، أنا كما ترى فقير، ولا أستطيع تجهيز ابنتي!"

بدأ لي العم سالم صادقًا في كلامه، والأهم من ذلك أنه سيقبل بتزويجي من ابنته؛ لهذا فعلتُ ما طلب مني، وبدأت بتجميع المال الذي أجنبيه، وأدّخاره عنده؛ حتى يكتمل المبلغ الذي سيوافق عليه.



تحمّستُ كثيراً، وبالفعل بدأت بوضع المال في الصُرة التي كانت عند العم سالم، وعملتُ أشهراً، وسنوات، وأنا أجمع المال، وفي كل شهر أسأله: هل اكتمل المبلغ يا عم؟ ويردّ عليّ: ليس بعد، ولكنك اقتربت

واستمرت الحال هكذا أشهراً، وكانت رغبتني في الزواج قد أعمتني عن الحقيقة، وأن العم سالم يمكن أن يكون قد استغلّني طوال الوقت، وفي ذات يوم ذهبتُ إليه، وقد نفذ صبري من الانتظار!

- "يا عم سالم، لقد طال انتظاري، ألم يكتمل المبلغ بعد؟ لقد مرّ ما يقارب الثلاث سنوات، ألم يحنّ الوقت بعد؟!"

- "اسمع يا يوسف، سأعيد لك مالك، لا أستطيع أن أزوّجك ابنتي، أنا لا أعرف أصلك وفصلك، وأخاف على ابنتي، وأريد أن أزوجه شخصاً يضمن مستقبلها، ولقد تقدّم لها رجل غني، وقد وافقت عليه!"

- "ولكنك وعدتني!"

- "نعم، ولكن هذا هو الوضع الآن، هاك أموالك التي جمعتها

عندي، ليس عندي بنات للزواج!"

فتحتُ الصُرة، وكدتُ أقع في مكاني من صدمتي، كانت تقريباً فارغة، بها ما يقارب مائة جنيه فقط لا غير! أين أموالني التي جمعتها لسنوات؟! لقد حرمتُ نفسي من الأكل والشرب كي أدخرها، لقد سرقتني العم سالم دون وجه حق! ولا أحد يستطيع إثبات ذلك، لقد قدّمتُ له أموالني بلا ضمان، واستغلّني، واستغلّ حُسنَ نيّتي.. كنتُ أراه قد اشترى سيارة، ثم بعد فترة اشترى قطعة أرض، فلم يخطر



ببالي أبدأ أنه كان يشتري هذه الأشياء بمالي الذي استأمنته عليه، فلم أستطع النوم تلك الليلة، وليال كثيرة بعدها، فبعد أن كان الحلم الذي أردتُ تحقيقه قريباً جداً، أصبح اليوم كالسراب، بعيداً، ولا أستطيع الوصول إليه.

\*\*\*\*\*



## دفعُ العائلة

بقيتُ أعملُ كسائق في المعسكر لسنوات، وتركتُ فكرة الزواج نهائيًّا، فلم أكن أملك المال الكافي أبدًا، تزوج الأستاذ حسن زميلي في الغرفة، وأنجب صالحًا، وانتقل للعيش في منزل مع زوجته، فرحتُ له كثيرًا، وافتقدتُ العيش معه في غرفة واحدة، كنتُ أزوره بين الوقت والآخر؛ لأعرف أخباره؛ ولأنه ليس لي أصدقاء غيره، فقد كان لي الأخ الأكبر، والصديق.. وحتى الأب، لقد اعتنى بي في مرضي، وساعدني في أضيِّقِ حالاتي، ولن أنسى له الجميل أبدًا.

وفي يوم من الأيام، جاءني حسن، وقال: إنه وجد لي زوجة مناسبة من عائلة محترمة يعرفون بطيب أخلاقهم، وحسن عشرتهم، وعندما سألته عمًّا إذا أخبرهم عن حالي، وأني يتيم الأب والأم.. قال لي: إنه قد شرح لهم حالي، وأخبرهم بأنه يعرفني جيّدًا، ويعرف أخلاقي، وقال لي أيضًا: إن والد الفتاة أحب فكرة أني يتيم؛ لأنه لا يريد لابنته أن تعيش مع حماة لتضايقها!

لم تسعني الفرحة يومها، وعدتُ إلى منزلي أعدّ المال الذي أملكه، وكان مبلغًا جيّدًا، ليس بالقدر الذي سرقه منه العم سالم، ولكن الله أعانني على جمع بعضه، واشتريتُ بيتًا صغيرًا يسعني مع الفتاة التي سأتزوجها، وبعد أسبوعين، ذهبْتُ مع حسن وقمنا بخطبة الفتاة..



اسمها "حبيبة" .. كانت تصغرني بخمسة، أو ست سنوات، كنت في العشرين، بينما هي في الرابعة أو الخامسة عشرة.. في قمة الجمال، تشبه الممثلات المصريّات اللّاتي يظهرن في التلفاز، شعرها أسود فاحم طويل، وعيناها واسعتان، ووجنتاها حمراوان.. من شدة بياض بشرتها، كانت حسناء بكلّ ما تعنيه الكلمة، حتى أنّي استكثرتها على نفسي؛ كوني أسمر اللون، ولا أعتبر نفسي وسيماً أبداً! كانت حبيبة أكبر إخوتها؛ لهذا، فأمها وأبوها كانا خائفين عليها كثيراً؛ كونها لا تزال صغيرة في العمر؛ ولكنني طمأنتهم بأنني سأعتني بها، وسأعمل ما بوسعي لتعيش حبيبة حياة كريمة، وبالطبع أخبرتهم بقصتي، وبأنني لا أعرف من تكون أمي ولا أبي، ولا من أين أنا، أخبرتهم عن حياتي في المعسكر وعملي فيه، تعاطف والد حبيبة معي كثيراً، وطلب مني أن أعتبره مثل أب لي، أما أمها فقد كانت سيدة شديدة المراس، لم تكن تريد أن تزوج ابنتها من يتيم، وفقير مثلي! فهي ذات حسب ونسب، وكانت تريد لابنتها الشيء نفسه، ولكن شاء الله أن يتمّ هذا الزواج على خير، وانتقلتُ برفقة حبيبة إلى المنزل الذي اشتريته، وبدأت حياتنا هناك.

في ذلك الوقت فقط، نسيّتُ أنني يتيم، وشعرت أن لي عائلة، وأنني لستُ وحيداً، فأحمدُ الله كلّ يوم على النعم، وعلى حبيبة، بل كنتُ أغيب عنها لأيام بسبب ظروف عملي التي كانت تضطرني لنقل حمولات إلى مناطق بعيدة؛ ولأنني لم أكن أستطيع تركها في المنزل وحدها، فأطلب من حماتي أن تذهب، وتنام عندها في الليالي التي أغيب فيها.



كنتُ أعمل، وأشقى ليلَ نهارٍ؛ لأوفّرَ لها حياة طيبة تليق بها، وقد اتفقنا معاً على أن نعيش بقدر ما نملك، ونُدخّر القليل لنا، ولأبنائنا في المستقبل، فكل ما كنت أريده في الحياة هو أن يعيش أبنائي حياة أفضل بكثير من الحياة التي عشتُها، وهذا الدافع الوحيد الذي يدفعني للعمل أينما استطعت.

كانت حبيبة أحياناً تتضايق من كثرة عملي، ومن تلك الساعات الطويلة التي أقضيها خارج المنزل؛ ولكنني كنت مصمماً على رأيي، فلن يحتاج أبنائي لأحد، ولن يمدّوا أيديهم طلباً للمساعدة من أحد.

وفي الوقت نفسه، كنت أساعد مَنْ أراه بحاجة للمساعدة في طريقي كردّ للجميل لكل مَنْ ساعدني في طفولتي وشبابي؛ لذلك كنت - في كل ليلة تقريباً - أعود إلى المنزل، ومعِي رجل، أو اثنان ممّن وجدتهم جائعين في المسجد، أو محتاج في الطريق، أخذه معي إلى منزلي، وأطلب من حبيبة أن تطبخ لنا العشاء لي وللضيف، هكذا في كل يوم؛ حتى استاءت مني حبيبة في أحد الأيام!

- "نحن لا نملك الكثير؛ حتى نساعد كل مَنْ تجده في

الطريق يا يوسف!

- "يا حبيبة اسمعيني، لقد عانيت في طفولتي كثيراً، كنتُ

مشتتاً أعيش على رحمة الناس حولي، أعرف معنى الحاجة، وأعرف طعم أن يساعدك أحد في ضيقتك، أو أن يقدم لك وجبة، أو مأوى في ليلة، صدقيني، أن المعروف لا يذهب سُدًى، وسيعود لي ما أفعله يوماً ما، لقد أكرمني الله بك زوجة في أضيّق أحوالي، وسيكرمني أكثر كلما ساعدت عباده بما أقدر."



وكنْتُ كلِّما أرى طفلاً يبيع المناديل في الشارع، أو آخر يوزع  
الشاي مع أبيه بين السيارات، أتذكر نفسي، وأتذكر طفولتي، وعملي  
في الشوارع وأعاهد نفسي على أن أضمن لأطفالي حياة كريمة غير  
التي عشتها.

\*\*\*\*\*



## البداية نعمة

وبعد زواج استمر سنة، رُزِقْنَا بطفلتنا الأولى، لتتير قلوبنا، وتصنع سعادة، وفرحاً في بيتنا، وقد أسميتها "نعمة"؛ لأنها نعمة من نعم الخالق عليّ، وبعدها بسنة، رزقنا بابني "عبد الله"، فتلوّنت حياتي بألوان أبنيّ، وتعاهدتُ وحبّية على أن نحسن تربيتهما، وأن يكون تعليمهما أهم من الطعام والشراب؛ لأننا نحن الاثنان حُرْمنا منه لأسباب عدة، وسنفعل المستحيل ليحظى به وَلَدَيْنَا، حتى يصلنا لمراتب لم أستطع وأمهما أن نصلها.

كنتُ أحرص دائماً على أخذ ابني معي إلى المسجد منذ أن كان طفلاً صغيراً، ولا يمرُّ عليّ يوم إلا وأنا أوجّهه، وأعلّمه الأخلاق الحميدة، ومساعدة الآخرين، كم كان يتذمّر منّي، ومن إلحاحي الدائم عليه، ولكنني كنت مصمّماً على أن يتعلم، كنت أريد أن أكون له كل شيء حُرِّمْتُ منه في طفولتي، فلم أجد من يعلمني حين كنت في عمره.

كبرت نعمة، وكبر عبد الله، وأصبحتُ يسألانني كثيراً عن عائلتي، وهل عندهما أعمام أم لا، ولكن كانت إجاباتي مختصرة كثيراً...

- "أبوكما يتيم الأب والأم يا حبيبيّ، وقد انفصلتُ عن بقية أهلي منذ كنتُ صغيراً جداً، ولا أعرف الكثير عنهم."!



كم كنتُ أتمنى لو أنني أملك قصصًا عن جدّهما وجدتهما، أو أبناء عمومتهم، عن المكان الذي نشأت فيه، ولكن كل ما في ذاكرتي هي ذكريات متفرقة عن المعسكر، وتشرّدي وتقلّي بين البيوت، وعملي المتواصل منذ كنتُ طفلًا صغيرًا.

كانت حبيبة بالرغم من صغر سنّها، سيدة منزل بكلّ ما تعنيه الكلمة، اهتمت بي وبالمنزل، كانت الوطن الذي بحثتُ عنه طويلًا في حياتي؛ والحضن الذي رميّت فيه أعباء السنوات السابقة، والأم التي لم أعرف حبها وحنانها إلاّ معها، وكانت الصديقة التي أجدّها دائمًا في صفّي، تشجّعني وتؤازرنِي، تقف إلى جانبي مهما أخطأت.

لم أسمعها تتذمّر يوماً من ضيق الحال، أو بساطة الحياة، كانت تتحمّلني بكلّ عيوبي، تتحمّل طلباتي الكثيرة، تتحمّل مسؤولية الأبناء معظم الوقت، مسؤولية دراستهم، أكلهم ولبسهم، وتتدبّر أمور المنزل بأيّ مبلغ وفّرته لها.

بل وكانت تُجمّل كل ما تراه، وتجدد كلّ ما تسقط عيناها عليه، وحين تقترب مناسبة من المناسبات، أو عيد من الأعياد أبدأ بالتفكير بالمصاريف التي يجب أن أنفقها لشراء ملابس جديدة، ولكنني أراها قد ادّخرت من مصروف المنزل دون أن نشعر؛ لأنها تعرف أن العيد على الأبواب، هكذا كانت وهكذا أحببتها، ووثقت أنه طالما هي معي، فكل الأمور ستكون على ما يرام.

أنجبتنا بعدها عيسى، وجميلة، ومع أربعة أبناء زادت الأعباء عليّ، وأصبح عملي كسائق هنا، وبائع هناك لا يكفي لإعالة أربعة أطفال، وتوفير كل ما يحتاجونه من مأكّل ومشرب وتعليم، لهذا بدأتُ



بسؤال الناس عن فرص عمل أخرى، فرص عمل تأتي بمال أكثر،  
جلستُ يومها مع مجموعة من الجيران بالمقهى الشعبي في حارتنا،  
وقلتُ لهم عن مشكلتي، وكيف أن عملي وما أجنيه الآن لم يعد كافياً،  
فاقتراح البعض أن يعمل ابني معي، فالتعليم لا أهمية له إن كنتُ  
أحتاجه في إعالة العائلة، ولكنني رفضتُ تماماً الفكرة، فأني يترك عبد  
الله تعليمه كان أمراً مستحيلاً بالنسبة لي.

\*\*\*\*\*

## آلام غربة

أخبرني أحدهم عن (أبو صالح)، الذي هرب من البلاد، وذهب ليعمل في الخارج، والآن هو يجني أضعاف ما كان يجنيه هنا، ويرسل المال لزوجته، وأولاده كل شهر، ولكن في المقابل لا يستطيع العودة للبلاد مرة أخرى؛ لأن الاحتلال يمنع الخروج والدخول، بل يمنع السفر منعاً باتاً.

وأخبرني أيضاً أنه إذا قررتُ، وأردتُ السفر، فإنَّ له إجراءاتٍ كثيرةً ومبالغ يجب أن تُدفع، واتفاقات مع مجموعة من السائقين المتخصصين في عمليات تهريب السكان من الحدود، فهم يعرفون الأوقات التي تكون فيها الحراسة مخففة، ويعرفون نقاط التفتيش التي ستسمح له بتهريب السكان مقابل مبلغ من المال من كلِّ راكب. عدتُ إلى المنزل، والأفكار تحوم في رأسي، هل من الصواب أن أترك زوجتي، وأولادي ليعيشوا وحدهم بينما أنا أعمل آلاف الكيلومترات بعيداً عنهم؟! هل ستستطيع حبيبة الاعتناء بأربعة أطفال وحدها؟ بالطبع سيساعدها والداها؛ ولكني سأكون بعيداً عنهم، لن أراهم يكبرون، إلا أنه سيكون معهم ما يكفيهم ليعيشوا حياة أفضل. تناقشتُ كثيراً مع حبيبة، فرفضتِ الفكرة في البداية، ولامتني كثيراً لمجرد التفكير في تركها هي والأولاد، وأوضاع البلاد في هذا التدهور، ولكن وبعد أن أفتعتها، وشرحتُ لها كيف أن كلَّ هذا لمستقبل أبنائنا، تفهمتُ أنه هو الحلُّ الأمثل؛ بشرط أن أدبر لها



أن تأتي، وتعيش معي حالما يستقرّ حالي هناك.

ومنذ ذلك اليوم، تواصلت مع (أبو صالح)، وأخبرني عن شركة المواصلات التي يعمل فيها، وأنه يستطيع أن يكلم مسؤوله ليدبّر لي عملاً في الشركة، فأرسلتُ له أوراقِي الرسمية، وتيسّرتُ الأمور بأسرع ممّا كنتُ أتخيّل، ولم يمضِ الشهر إلا وقد حُزمتُ أمتعتي، وتجهّزتُ للرحيل.

كان فراق حبيبة والأطفال صعباً عليّ، فللسفر مخاطرٌ كبيرةٌ في هذه الفترة، وهناك مجازفة كبيرة في أني لا أستطيع أن أراهم مرة أخرى، ومن جهة أخرى، فإن المسافة التي سأسافرُها بعيدة جداً، وكنتُ سأراجع أكثر من مرة، ولكن كانت حبيبة تشدّ من أذري وتشجّعني، وتطمئنني أنها ستكون والأطفال بخير، وأن الله سيجمع شملنا قريباً في حال أفضل.

ركبتُ شاحنة تحميل المؤن، تلك التي ستكون وسيلة سفرنا إلى رأس الجبل، حيث سأعمل، ومعِي أربعة ركاب، جميعنا تركنا عائلاتنا وتغرّبنا طلباً للقامة العيش، كانت مدة السفر عشرة أيام متواصلة، توقفنا في مناطق كثيرة، واضطررنا لأن نختبئ، ونوقف المسير مرتين حين كانت الحراسة مشدّدة عند نقاط التفتيش، لقد كانت الرحلة متعبة لأعصابنا أكثر من أجسادنا، فجميعنا كانوا يعرفون أنه لو فضّح أمرنا؛ فإنه سيكون مصيرنا السجن إلى أمد غير معلوم، وهذا كان أكثر ما يخيفنا.

وبعد جهد جهيد، مررنا الحدود بسلام، باركنا لبعضنا بعضاً، وشكرنا سائقنا كثيراً، ومن هناك توجهنا جميعاً إلى سكن



العمال الذي توفره الشركة التي سنعمل لصالحها، كان كل واحد له سريره، وما أن وضعتُ أمتعتي على سريري إلاّ وداهمتني ذكرى من الأيام التي عشتها في المعسكر مع "فرانك" والآخريين، وتذكرتُ عطف "فرانك" عليّ، والضرب الذي تلقيته من آخريين حين كنت أقصر في المهام الكثيرة التي تطلب مني.

أخرجني من عاصفة الذكريات أحد الزملاء الذين سافرتُ

معهم:

" - تشعر بالحنين أليس كذلك؟".

- " نعم، فقد تركت زوجتي ومعها أربعة أطفال."

- " لا تقلق، لهم الله يرعاهم، سيزول إحساسك قريباً، فأنت

تفعل هذا من أجلهم، لو كان الاحتلال ترك لنا مجالاً للعمل في بلادنا، لما اضطررنا للغربة، ما باليد حيلة يا صديقي".

كان مصطفى على حق، فالاحتلال الأجنبي سلب منا حقوقاً

كثيرة وتركنا نعمل في أقل الأعمال قيمة، ودفعنا للخروج من بلادنا في سبيل الحصول على أبسط احتياجاتنا، لهذا كنت مصمماً على أنني لو تحسنت أوضاعي هنا، سأخرج حبيبة والأطفال مهما كلف الأمر، لن أترك أبنائي ليتربوا في بيئة يملؤها الظلم، والاضطهاد.

استمرت غربتي ما يقارب الثلاث سنوات، حيث عملت في

شركة المواصلات التي دبر لي (أبو صالح) فيها العمل؛ ولأنني كنتُ

أتقن اللغة الأجنبية جيداً منذ كنتُ صغيراً، حصلتُ على وظيفة أفضل

في الميناء براتب أعلى، فأرسلت لحبيبة، والأولاد كل معاشي، وأبقيت

لي القليل.



عملتُ ليلَ نهارَ فوق الساعات المخصصة لي لأحصل على أجر أكبر، حتى أستطيع إرساله لحبيبة والأطفال، وأطلب منها ألاّ تقصّر معهم في شيء، وكانت تطمئنني أن علاماتهم بالمدرسة في ارتفاع دائم، وجميعهم من المتفوقين، كم كنتُ أسعد بهذه الأخبار! كنا نراسل دائماً بالرسائل، وشرائط التسجيل، فترسل لي مع كل رسالة صورة لهم، وشریطاً سجّلوا لي فيه أصواتهم، وتحياتهم، وأحياناً طلباتهم التي يريدونني أن أحضرها لهم معي في زيارتي القادمة.

\*\*\*\*\*

## سفر حبيبة

في إحدى رسائلي لحبيبة سألتها كعادتي عن أخبارهم، وما الجديد في البلاد، فأرسلت لي شاكية: " لا جديد حقيقة، لا زلنا على حالنا، فالمحتل يسعى جاهداً كي يبقينا في ظلام الجهل، ونصارع طوال يومنا من أجل لقمة العيش حتى لا نفكر في أي شيءٍ آخر، أصبحت المدارس سيئة، وما يعلمونه للأطفال لا يمكن أن يفيدهم في حياتهم مهما درسوه، إن كنا نريد مستقبلاً أفضل لأولادنا يا يوسف.. مستقبلاً أفضل منا، يجب عليك أن تخرجنا من هنا".

كانت هناك لوعة، وألم في كلمات حبيبة، ولم أشعر بها من قبل؛ لذلك عقدت العزم على أن أفعل المستحيل لتدبير أموري هناك، وتجهيزها لاستقبالهم، فلا شيء عاد لنا في بلادنا هذه إلا لو تغيرت الحال، وتحررت البلاد.

ثم ذكرت حبيبة شيئاً في الرسالة ذاتها قلب كياني، وأوقف الشعيرات في يدي: " دقّ علينا الباب مجموعة من الشبان في مقتبل العمر، كانوا يبحثون عن شخص اسمه "محمد سالم"، أخبرتهم أن هذا بيت "يوسف سليمان"، ولا نعرف أحداً بهذا الاسم، ثم رحلوا، وبعد أشهر أخرى جاءني مجموعة شبان آخرين، وسألوني إن كان هذا منزل "محمد سالم"! أحببهم ب(لا)؛ ولكن بدأت أشك في الأمر، فسألتهم: كيف وصلوا لبيتنا؟ ومن دلّهم ليدقوا هذا الباب بالذات؟ فقالوا لي: إنهم جاؤوا من جزيرة بعيدة، وقد بعثتهم إحدى الأمهات



هناك لبيحثوا عن شخص كان قد اختطف منذ زمن بعيد من قبل جنود الاحتلال، ولم تستطع أمه أن تجده؛ ولأنك كنت تعمل في المعسكر لفترة طويلة، فقد أوصلهم الناس إلى بيتنا لعلك سمعت، أو عرفت شيئاً عنه!"

اقشعر بدني، وأنا أسمع كلام حبيبة، فلم تكن تلك الكلمات غريبة عليّ (طفل، جزيرة، جنود الاحتلال) جميعها كلمات سمعتها، وعشتها، وتساءلتُ يومها: هل من الممكن أن يكون هذا الطفل هو أنا؟! ولكن تلك القصة كانت مختلفة عن القصة التي حكاها لي الآخرون في صغري عن ماضيّ، ومن أين أنا، لم أكن مخطوفاً، واسمي "يوسف سليمان"، وليس الاسم الذي يسألون عنه!

ظلت الأفكار تصارعني تلك الليلة، وليالٍ أخرى كثيرة بعدها، ولكني لم أخبر حبيبة بشكوكي؛ لأنني لم أكن أريد رفع معنوياتها دون أن أكون متأكداً من الأمر، فقط طلبتُ منها أن تكتب لي إن سأل أحدهم عن الاسم مرة أخرى، أو تعطيه عنواني ليكتبوا لي.

مرت عدة أشهر، ولم يصلني شيءٌ من حبيبة يخصُّ الشبان الذين سألوا عن "محمد سالم"، ففقدتُ الأمل، ونسيتُ أمرهم؛ لانشغالي بتجهيز أمور سفر حبيبة والأطفال، وأرسلتُ لها مبلغاً كافياً من المال؛ لتدفعه للسائق الذي سيأخذهم عبر الحدود، ومبلغاً إضافياً في حال استمرّ سفرهم مدة أطول ليستطيعوا استئجار مكان ليناموا فيه الليالي الإضافية، كلمتُ السائق، واتفقت معه على أن يأخذ زوجتي وأطفالي الأربعة، وكان طلباً صعباً عليه؛ لأنه يخاف من نقل الأطفال، فمسؤوليتهم أكبر، فأصررتُ على أن أدفع له مبلغاً أكبر



جزاءً له لتعاونه معي.

كنت أعرف مشقة هذه الرحلة؛ ولكنني كنت واثقاً من قدرة حبيبة على تحمل الأمر، وقد استمر سفر حبيبة سنة كاملة، وهي تنتقل مع الأطفال من بلدة إلى بلدة، ومن مدينة إلى أخرى، حتى السائقين.. اضطر السائق الأساسي لإعطاء مهمة نقلهم إلى آخر، والكثير الكثير من المعاناة التي مرّت بها حبيبة فقط لتصل إليّ؛ إلا أنني لا أستطيع سردها هنا، فقصة هروب حبيبة تحتاج كتاباً خاصاً بها.

\*\*\*\*\*



## قصة هروب حبيبة.. باختصار

كنتُ أَلْعُبُ مع بنات الحارة بالأرجوحة التي علَّقها لنا العَمُّ فوزي على جذع شجرة كبيرة مقابل دُكَّانِه، حين نادتنِي أُمِّي تطلب مِنِّي الجلوس إلى جانبها؛ لأنَّ هناك موضوعاً مهمًّا تريد أن تفتاحني فيه، أخبرتنِي أَنِّي أصبحتُ كبيرة ولا يصحُّ أن أَلْعَبَ في الخارج بعد الآن، وأنه يجب أن أبقى معها في المنزل أساعدها، وأتعلَّم أصول الطبخ، وإدارة المنزل؛ لأنه وفي آيَّة لحظة من الآن ممكن أن يتقدَّم لي أحدهم للزواج، ويجب أن أكون جاهزة لذلك اليوم.

لم أفهم كلام أُمِّي كله في تلك اللحظة، فكل ما كنتُ أريده هو اللعب بالأرجوحة مع باقي الفتيات في الخارج؛ ولكني ومع الأيام فهمت حين رأيت خديجة ابنة الخالة صباح تلبس فستاناً أبيض مزخرفاً باللآلئ والخرزات الفضية، تجلس وسط صالة منزلهم، وجميع نساء وفتيات الحارة حولها يصفقن ويغنين؛ لأنَّ اليوم هو حفل زفاف خديجة، فهمتُ يومها أن خديجة ستخرج من منزلها، وتذهب لتعيش في منزل رجل آخر يسمَّى زوجها، وستتجب أطفالاً ينادونها أُمِّي كما فعلتْ أختها هاجر، فهمتُ كل ذلك، وبقيتُ في المنزل غير مسموح لي في الخروج، فقط أستطيع أن أشاهد الفتيات من نافذة المطبخ، وهنَّ يلعبن في الخارج.

جاء اليوم المنتظر، أتتني أُمِّي يومها تقول لي: إنه قد عُقد قراني على رجل "طيب" كما يصفه أُمِّي، اسمه "يوسف"، يتيم الأب



والأم، واني الآن سأتروجه، وأعيش معه في منزله كما فعلتُ صديقتي خديجة، وجميع الفتيات اللاتي في مثل سنِّي، دُعرتُ يومها، فلم أكن أريد ترك أمي وأبي.

مشاعر كثيرة تدافعت عليَّ في اليوم الذي كنتُ أجلس في وسط صالة منزلنا أنا الأخرى، والجميع فرحون مسرورون، يصفقون ويغنون الأغاني الشعبية، يتمنون لي السعادة والذُرِّيَّة الصالحة، وما كنتُ أتمنّاه في تلك اللحظة هو أن أخرج من ذلك الفستان، وأركض في الشارع بعيداً عن كل هؤلاء النسوة، كنتُ أرى أمي فرحة فأرتاح، ثم أرى النساء، وهن يخرجن الواحدة تلو الأخرى؛ فأعرف أن النهاية قد اقتربت، وأنه حان موعد ذهابي لمنزل الرجل الذي سيكون زوجي. مرّت الأيام والشهور، بقيت أمي تنام عندنا في منزل يوسف أياماً كثيرة لعدم قدرتي على الجلوس معه وحدي، كنتُ صغيرة، طفلة اقتلعتُ من الأرجوحة، ووُضعتُ في منزل الزوجية، ولكنّ ما ساعدني على الخلاص من ذلك الحزن، والضيق الذي كنتُ أشعر به هو "يوسف"، كان بالفعل كما وصفه أبي، طيباً بمعنى الكلمة، يسعى لإرضائي، وراحتي بكلّ ما أوتي من قوة.

أخبرني عن مشقة حياته السابقة، وما عاناه في أيام تشتته، وتقله بين البيوت، كان دائماً يقول لي: إنني الهدية التي عوّضه الله بها بعد كل ما عاناه في السابق، وكنتُ أفرح كثيراً حين أسمع ذلك الكلام.

أنجبنا ابنتي الأولى، فكان بيني وبينها ١٥ عاماً فقط، كنت طفلة مسؤولة عن طفلة، لم أكن أعرف أسس التربية، حتى أنني



كنت أغسلها ٥ أو ٦ مرات في اليوم حتى كادت ابنتي تصاب بالالتهاب الرئوي من البرد؛ ولكن الحياة تُعلِّم الذي يريد أن يتعلَّم، وتتجاهل مَنْ يتجاهلها، كانت تلك حكمة "يوسف" في الحياة.. تعلمتُ منه الكثير، تعلمتُ عدم اليأس من الظروف المحيطة، وأن هناك دائماً جانباً مضيئاً في أيَّة ضائقة، أو مشكلة نقع فيها؛ ونحن مَنْ يجب علينا أن نجد ذلك الجانب، فلن يأتي هو لنا مهما انتظرناه.

تعلمتُ الكثير حين أنجبتُ ابني عبد الله، تعلمتُ أن الطفل يحتاج لأن يأخذ قسطاً كافياً من الراحة طوال النهار؛ حتى يستطيع أن ينام في الليل، وأنه من الممكن ألا يكون الجوع فقط هو سبب بكائه. أنجبنا عيسى، وجميلة، وتعلمتُ كيف أرْتب كمِّيَّات أكلنا، وشربنا على قدر مدخولنا الشهري الذي يجنيه "يوسف"، ومتى يجب علينا أن نشترى حاجيات المنزل، ومتى نشترى ملابس جديدة، وقبل كم من الأيام يجب أن أدخر النقود التي نحتاجها لدراسة الأطفال. كل ذلك تعلمته مع "يوسف"، كنا نتعلم من الحياة معاً، كنتُ أكبرُ معه ويكبر هو معي، ونكبر جميعنا مع أطفالنا؛ ومع الأيام كبر الأطفال وازدادت المسؤوليات علينا، كان "يوسف" يحاول مساعدتي؛ إلا أن ساعات عمله الطويلة كانت تُحتِّم عليه العودة إلى المنزل في وقت متأخر غالباً، مما يجعل مسؤولية أربعة أطفال، بأكلهم وشربهم، ودراستهم تتكدس عليّ، بالإضافة إلى التنظيف، والغسيل والطبخ، كنت أطلب مساعدة أُمِّي أحياناً؛ ولكنها وحين أفعل، تقضي اليوم كله وهي تتذمَّر من أن "يوسف" ليس غنياً كما أرادت زوجي أن يكون، وأنه لم يكن هو خيارها الأول، ولا تتوقف إلى أن يعود "يوسف"، وينتهي



اليوم بشجار الاثنين، وخروج أُمي من بيتي مستاءة.  
حين قرر "يوسف" السفر إلى الخارج خفتُ في البداية من  
المعيشة وتربية الأطفال الأربعة بدونه؛ لأنه -وكما فهمت منه- أنه  
سيكون خروجاً دون عودة؛ لكن وبعد نقاش طويل قررنا إن أردنا حياة  
أفضل لنا ولأطفالنا، فهذه هي الطريقة الوحيدة.

سافر يوسف، وكم كانت الأيام التي ننتظر فيها أن تصلنا منه  
رسالة، أو مكالمة طويلة! كان يطمئنا عن حاله، ويخبرنا بأنه أرسل  
لنا المال ونستطيع أن نستلمه من الصراف، كنت أذهب ومعني عبد  
الله نقف طابوراً طويلاً عند نافذة الصراف في نهاية كل شهر، نعطيه  
اسمي، ويخرج الأموال من الدرج الخشبي الذي تحته، يُعدها أماننا  
لنتأكد من أن المبلغ صحيح، ثم أوقع على ورقة الاستلام، وأضع  
النقود في صُرَّتِي، ونخرج، هكذا في كل شهر، كان المبلغ يتغير في كل  
شهر، يقل ويزيد حسب العلاوات التي يحصل عليها "يوسف"، وحسب  
طلباتنا كالأعياد، وبداية سنة دراسية جديدة، كنت أشتري من المبلغ  
مأكلنا، ومشربنا، ونواقص المنزل، وأعطي الأطفال مصروفهم في  
كل يوم قبل الذهاب إلى المدرسة، أما الباقي فأدخِرُ منه ما استطعت،  
كان يوسف يخبرنا عن حياة المغتربين هناك، وكيف أن الكثير من  
العوائل من بلادنا انتقلت لتعيش هناك، كان يخبرني أن الحياة هناك  
بالرغم من أنها صعبة؛ ولكنها تبدو أسهل من حياتنا هنا في بلادنا،  
الأطفال يتلقون تعليماً جيداً، الآباء لديهم وظائف أفضل؛ لذلك فهم  
يسكنون في بيوت أفضل، كان يقول، أو يكتب ذلك، ويتمنى لو أننا  
نستطيع السفر، واللحاق به إلى رأس الجبل، كنا جميعاً ندرك صعوبة



السفر مع أربعة أطفال، فالاحتلال في بلادنا لم يكن يسمح بالخروج، والسفر إلى خارج البلاد، وكانت القوانين مشددة أكثر لو كان في الأمر أطفال، وحتى لو استطعنا تدبر أمر الهرب من البلاد كما يفعل الكثيرون، كنا ندرك مشقة السفر، والمبلغ الذي سنحتاجه لنسافر سيكون كبيراً.

تمكنتُ فكرة السفر منِّي بالرغم من أن الجميع كان يقول لي إنها مستحيلة بما فيهم "يوسف"، ولكنني كنتُ قد عزمْتُ عليها ومع الأيام، ادخرتُ ما استطعت لأجمع المبلغ الذي سيكفينا للسفر، بعْتُ كل ما أملك من ذهب دون أن أخبر أحداً، ثم سجَّلتُ شريطاً صوتياً طويلاً بعد أن أكمل "يوسف" سنتين في الغربية، أخبرته بأني تدبرتُ أمر المال الذي سنحتاجه لهذه الرحلة، وأنه الآن عليه أن يساعدي في بقية الترتيبات المتعلقة بالسفر، أو الهروب من هنا إلى رأس الجبل. رد عليَّ "يوسف" وللمرة الأولى بسرعة.. كأنه شعر بحرقتي وخوفي، ومن هنا بدأنا نرتب أمر سفري مع الأطفال.

اتفقنا مع الرجل المسؤول عن تهريب السكان عبر الحدود، كان رجلاً كبيراً في العمر يدعى "أبوصالح"، فذهبت وتكلمت معه بعد أن أرسل له يوسف من يخبره بطلبنا، وطلب الرجل مبلغاً كبيراً من المال؛ لأننا كنا أربعة، ولسنا شخصاً واحداً، ومن بيننا أطفال، وهو يعرف صعوبة خروج الأطفال بالذات من البلاد، وبالرغم من ذلك وافقنا، وتم الاتفاق.

كان فراق أُمِّي وأبي موجعاً لي وللأطفال، احتضنتُ أُمِّي الأطفال ولم تستطع أن تتركهم، ثم نظرتُ إليَّ، وأنا أمسح دموعي



بكمُّ عباة تي، وقالت لي:

- " لا تتظري إلى الوراء يا حبيبة، ولا حتى لثانية، لا تخافي، ولا تتوقضي، ابدئي حياةً أفضلَ مع زوجك وأطفالك، فأنتم تستحقون ذلك."

احتضنتُها، ثم ودَّعتُ أختي الصغرى، وطلبتُ منها الاعتناء بأبي وأبي في غيابي، ووضعتُ خماري على وجهي، وركبتُ مع أبي السيارة، وانطلقنا في الرحلة التي لم نكن نعرف نهايتها.

كان اليوم الموعود فجر يوم جمعة، في أول يوم من إجازة الشتاء، طلب منا "أبوصالح" أن نتنظره في محطة وقود عند طرف المدينة، بقينا في سيارة أبي إلى أن جاءت الشاحنة، وركبتُ وأبنائي، بكى أبي أثناء وداعنا وتمنَّى لو أعود عن قراري لخطورة ما قد يحصل؛ ولكنني طمأنته أنني أستطيع فعل ذلك، مع أنني كنت أرثجف من الداخل.

لم يغمض لي جفن طوال الرحلة، كنت أضمُّ أطفالي اثنين من كل جهة كالعصفورة في وسط العش خائفة أن يكون ما أفعله من الممكن أن يخسرني إياهم، أو يصاب أحدهم بمكروه بسببي، فلم أتوقف عن الدعاء طوال الرحلة.

كنا نجلس خلف أكياس الأرز والشعير، توقفت السيارة، وجاء السائق إلى الخلف قائلاً: "سنمرُّ الآن عند أول نقطة تفتيش، من الممكن أن يطلب الضابط أن ينظر في الخلف، ابقوا ساكنين خلف الأكياس وإن شاء الله سنمر منها بسلام".

ثم رفع أحد الأكياس الكبيرة، ووضعها أمامنا ليحجبنا تمامًا، ثم أكمل مسيره، وبعد فترة وجيزة توقفت السيارة من جديد،



فَضَمَمْتُ أَطْفَالِي بِقُوَّةٍ مِنَ الْخَوْفِ، وَبَدَأْتُ أَرُدُّ جَمِيعَ مَا أَحْضَطُّ مِنَ الْأَدْعِيَةِ، وَتَشَبَّثْتُ كُلُّ أَطْفَالِي بِقِطْعَةٍ مِنْ ثَوْبِي، وَحِينَ فُتِحَ الْبَابُ الْخَلْفِي رَأَيْتُ ضَوْءَ الشَّمْسِ يَدْخُلُ بَيْنَ أَكْيَاسِ الرِّزِّ.

- "ماذا في الأكياس؟"

- "أرز وشعير سيدي كما أخبرتك."

- "افتحها."

ازدادت تلاواتي؛ لأنني ظننتُ أن الشرطي يريد أن يبعد خيشة الأرز التي تخفيها، ولكنه كان يقصد أن يتأكد ماذا يوجد في الأكياس، وحين رأى أنها تحوي أرزاً بالفعل، أغلق الباب، وسمح للسائق بالعبور، تنفستُ الصعداء وقتها؛ لأن الله استجاب دعائي، وقَبِلْتُ أبنائي جميعاً، وأخبرتهم ألا يخافوا طالما أن الله معنا.

وطوال الطريق وأنا أقصُّ عليهم قصة هجرة نبيِّنا من مكة إلى المدينة مع أبي بكر الصديق، وكيف أن الله حماهم، وأعمى عيون الكفار عنهم؛ لأنه قادر على كل شيء.

بقينا في السيارة ما يقارب نصف يوم، يسوق بنا بلا توقف، كنا ننام ونستيقظ، ولا نصل إلى وَجْهَتِنَا، أَلْمَتْنَا ظَهْرُنَا، وَتَيَبَّسَتْ أَرْجُلُنَا مِنَ الْجُلُوسِ فِي وَضْعِيَةِ الْقَرْفِصَاءِ، كَانَ عَيْسَى بِيكِي بَدُونَ تَوْقِفٍ، وَعَبَدَ اللَّهُ يَتَذَمَّرُ، وَتَسَكَّتْهُ نِعْمَةٌ، وَفَجْأَةً تَوَقَّفَتِ السَّيَّارَةُ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّنَا وَصَلْنَا؛ وَلِلْأَسْفِ كَانَ يَجِبُ عَلَيْنَا الْمُرُورُ بِطَرِيقِ جَبَلِي ضَيْقٍ حَتَّى نَصَلَ إِلَى الْمَدِينَةِ الَّتِي خَلْفَ الْجَبَلِ؛ لَكِنْ وَبَسَبَبِ حَادِثٍ فِي وَسْطِ ذَلِكَ الطَّرِيقِ لَمْ تَسْتَطِعِ السَّيَّارَاتُ الْعُبُورَ، وَلَا الْعُودَةَ مِنْ حَيْثُ أَتَتْ، وَبَقِيَتِ الشَّاحِنَةُ الَّتِي كُنْتُ فِيهَا عَالِقَةً بَيْنَ السَّيَّارَاتِ لِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ حَتَّى



غابت الشمس، وحلَّ الظلام، ثم أتانا السائق إلى الخلف، وأخبرنا بأنه لن يتم فتح الشارع الليلة، ويجب علينا أن نقضي الليلة هنا. - " ليس لنا أحد نعرفه هنا يا أبو صالح".

- " لا تقلقي يا أم عبد الله، سأخذكم إلى منزل أحد معارفي لترتاحوا فيه، سأقول لهم إنكم عائلة صديق لي يسكن في المنطقة الشرقية، وأنا آخذكم له، من المهم ألا تقولوا لأحد من أنتم، ومن أين أتيتم، وإلا ستكون مشكلة عظيمة!"

وهذا ما حدث بالفعل، أخذنا "أبو صالح" لمنزل معارفه، واستقبلتنا صاحبة المنزل، وعلى وجهها علامات تعجب، فقد كنتُ صغيرة في العمر، ضئيلة الحجم، أسافر وحدي دون رجل معي؛ بل أجزُّ خلفي أربعة أطفال صغار، لم أتكلم كثيراً مع المرأة، بل اكتفيتُ بشكرها للسماح لنا بقضاء الليلة عندها، وذهبتُ والأطفال، حيثُ أشارت لنا لننام، كان البيت شعبياً بسيطاً يقع أعلى جبل، قضيتُ وأبنائي الليلة هناك، كان الجو بارداً، وممطراً، وكنا خائفين من أن ننام في منزل شخص لا نعرفه، والأكثر من ذلك علينا أن نتظاهر أننا نعرف "أبو صالح"، وأننا من المنطقة الشرقية حتى لا يعرف أحد من أين أتينا، لم يغمض لي جفن بالرغم من تعبي، وإرهاقي؛ خوفاً على أطفالي ومن الضغط النفسي الذي كنت فيه.

لَقَّنتُ الأطفال أنه لا يمكن أن نقول لأحد من نحن، ومن أين أتينا مهما كلف الأمر، كنتُ أخاف من عيسى، فهو الصغير، ومن الممكن أن يقول أي شيء لأي أحد؛ لذلك أخبرتُ نعمة أنه يجب ألا تتركه وحده أبداً، نام الأطفال حولي، وبقيتُ أصلي طوال الليل، وأدعو



أن تتقضي هذه الليلة ويطلع الفجر علينا، وقد فُتِحَ الشارع نستطيع  
أن نمضي في طريقنا من جديد.

حين طلع النهار، أيقظتُ الأطفال؛ ليغسلوا وجوههم  
استعداداً للإكمال المسير، وحين فتحنا الصنبور كان الماء كأنه يُصَبُّ  
من ثلاجة، فلم يحتمل الأطفال البرودة، واكتفيتُ بمسح وجوههم  
بردائي، جاءت لنا زوجة قريب "أبو صالح" بإفطار متواضع، أكلناه  
بسرعة، وشكرنا المرأة كثيراً على لطفها وكرمها، وتمنَّتُ لنا رحلة  
موفقة إلى أهلنا، وانطلقنا مجدداً بالشاحنة نكمل طريقنا إلى  
المنطقة الشرقية، استمرَّ مسيرنا من الصباح الباكر، وحتى قبيل  
المغرب، وقبل غروب الشمس بقليل توقفت السيارة، وجاء "أبو صالح"  
إلى الخلف قائلاً:

- "لا أستطيع التقدّم أكثر يا أم عبد الله، يجب عليكم النزول،  
وإكمال المسيرة مشياً على الأقدام؛ إن كنتم تريدون أن تصلوا دون أن  
يراكم أحد!"

ترجّلنا من السيارة، ونظرتُ حولي، فرأيتُ أننا في وسط  
الصحراء شاسعة لا نهاية لها، أكمل "أبو صالح": "هل ترين تلك  
الأنوار البعيدة هناك؟ تلك هي المنطقة الشرقية، إن مشيتُم الآن  
ستصلون قبل أن يحل الظلام".

كانت الأضواء التي يشير إليها بعيدة جداً، وكأنه يشير إلى  
النجوم وسط السماء، تساءلتُ في نفسي كيف سنمشي كل هذا؟ لن  
يتحمّل عيسى، ولا جميلة مشي كل تلك المسافة، وماذا عن الأمتعة،  
هل أتركها هنا؟ فأنا لن أستطيع حمل الحقيبتين وحدي! ولكنها كلّ



ما نملك.

- "كلاً يا أبا صالح، لقد دفعنا لك لتوصّلنا إلى المنطقة الشرقية، كيف لك أن تتركنا وحدنا وسط الصحراء؟".  
 - "أنت تضيّعين الوقت يا أم عبد الله، لن أستطيع أن أخذكم إلى هناك، الوضع خطير جداً، يجب أن تمشوا على أرجلكم، وإلا لن تصلوا.. فلن يتحمّل أحد خطر أخذكم إلى هناك، وعليكم أن تتحركوا الآن، حفظكم الله!"

ثم ركب سيارته، ورحل بعيداً، وتركني وأبنائي وأمتعنا وحدنا في اللامكان! بقينا ننظر لتلك الأضواء، ونتمنى لو أنها تقترب إلينا بدلاً من أن نذهب نحن إليها؛ ولكن دون جدوى، كان يجب أن نتحرك قبل أن يحلّ الظلام، ولا نرى أماننا، ثم فتحتُ شنطة الملابس، وألبستُ الأطفال أهم القطع؛ لأخفف حملها، وبدأنا بالمسير.. نعمة تحمل عيسى، وأنا أحمل حقيبة أمتعنا بيد، وأمسك بجميلة بيدي الأخرى، وعبد الله يجرُّ الحقيبة الأخرى.

مشينا مسافة طويلة، ولم تقترب الأضواء منا، كنا نرى الشمس تغيب أماننا، ويتحوّل كل شيء إلى اللون البرتقالي، نحاول أن نتحرك أسرع؛ ولكن كان حملنا ثقيلاً، كان عبد الله يبكي من دخول الشوك بين أصابعه، أنهكنا، وتخلصنا من الحقيبة التي بيد عبد الله، ثم التي بيدي بعد أن بدأ بالصياح من التعب، كنتُ أشجعهم قائلة: إن المسافة قد اقتربت، وإن علينا الإسراع قبل حلول الظلام الحالك؛ وبالرغم من محاولاتنا، حلّ الظلام الدامس، وأصبحنا نمشي دون أن نرى ما الذي أماننا غير تلك الأضواء، أصبح الجوُّ بارداً جداً،



ومخيفاً للغاية، واستمررتنا بالمشي دون أن ننظر وراءنا، وعبد الله يبكي من التعب، وعيسى نائم على كتفي، أما جميلة ونعمة فممسكتان بعباءتي، إلى أن وصلنا تلك القرية الصغيرة بعد عناء.

كنتُ قد اتفقت مع قريبة لأُمي تعيش هنا أننا حين نصل إلى المنطقة الشرقية، سنحتاج لنبيت عندها بضع ليالٍ، كان الجو بارداً، والوقت متأخراً ولم أكن أعرف أين تسكن هذه القرية، كل ما أعرفه هو أن اسمها "أم عثمان الشرقي"، مشينا نتلفتُ يميناً ويساراً على أمل أن نجد أحداً نسأله.

صرخ عبد الله فجأة:

- "هناك يا أُمي! هناك ذلك الرجل!".

وبالفعل، كان هناك عجوز يخرج من باب مسجد، مشينا نحوه جميعنا:

- "اركض إليه يا عبد الله."

- "يا عم! يا عم" .. صرخ عبد الله خوفاً من أن يختفي العجوز.

ثم توقف الرجل، وسألته وأنا ألث من تعب المشي، وحمل عيسى على كتفي، سألته: إن كان يعرف أين تسكن أم عثمان الشرقي، نظر إلينا الرجل فقد كنا في حالة يرثى لها، ثم طلب منَّا اللحاق به ليدلنا أين تسكن أم عثمان، كانت قرية صغيرة جداً، ولم يكن هناك أحدٌ يتجول في الخارج؛ بسبب برودة الجو، مشينا خلف الرجل وأنا أدعو الله أن يأخذنا عند المرأة الصحيحة كما قالت لي أُمي، توقفنا عند منزل مرتفع، ونادى الرجل بصوت مرتفع من الخارج، فخرجت



المرأة من نافذة منزلها صارخة:

- "من هناك؟"

قلت لها: "أنا ابنة سعيدة بنت عمر"، وقبل أن أكمل كلامي

قالت:

- "أهلاً، أهلاً يا حبيبة، يا ابنة الغالية، تفضلي.. تفضلي

الحمد لله على سلامتكم".

نزلت أم عثمان بفانوسها الصغير، وقادتنا خلفها نصعد درجاً ضيقاً إلى أعلى البناية حيث تسكن، رحبت بنا أم عثمان، وقدمت لنا طعام العشاء الساخن، كنا نتصور جوعاً، فنحن لم نأكل أي شيء منذ تلك الوجبة التي أكلناها في الصباح الباكر، وبعد أن انتهينا أوصلتنا "أم عثمان" إلى الغرفة التي سننام فيها، وتمنت لنا ليلة سعيدة.

استبدلنا ملابسنا المتسخة، وأخذتها هي لتغسلها، ثم ارتمتي كل منّا في جهة، لم يشعر أي منّا بما حوله، وغططنا في نوم عميق. في صباح اليوم التالي، شربت مع أم عثمان كوباً من الشاي بالحليب وأنا أقصُّ عليها ما حصل معنا، وهي تصغي إليّ، وتتمنى لو كانت تستطيع فعل أي شيء لمساعدتنا، لم تعرف أنها قد قدمت لي الكثير باحتوائها لنا، فطلبت منها أن تنزل معي إلى السوق؛ لأشتري بعض الحاجيات لي وللأطفال بعد أن تخلصنا من جميع أمتعتنا في الصحراء، واشتريت أيضاً بطاقة هاتف، وطلبت أن أستخدم هاتهم حتى أتصل بيوسف، وأطمئنه أننا وصلنا إلى المنطقة الشرقية، ونحن الآن بأمان.



يجب علينا الآن أن نبدأ في الخطوة التالية، وهي استخراج جوازات سفر جديدة من العاصمة؛ لنستطيع أن نساغر بها إلى رأس الجبل، كان مشيئنا في الصحراء كل تلك المسافة وحدنا ليلاً قد هدَّ قوتي، وخفتُ أن يتكرر الأمر، ولا أستطيع أن أحافظ على أبنائي في المرة القادمة، خفتُ أن أكمل المسير، وكنتُ أراود نفسي في أن أعود من حيث أتيت، ولكن سرعان ما كنتُ أطرد تلك الأفكار من عقلي، وأفكر في كلمات أُمِّي، ألا أنظر إلى الوراء مهما حصل، وأن أكمل تقدّمي دون توقّف، فأستعيد قوتي، وأدعو الله أن يقوِّني لما هو قادم.

مكثنا عند أم عثمان بضعة أيام؛ لتتأكد من أن الأوضاع هادئة، وأنه لم يتسرّب خبر سفرنا بين السكان، وأيضاً انتظرتُ حتى يرسل لي يوسف المال لإكمال مسيرة السفر، بعدها استأجرنا سيارة بمساعدة "أبو عثمان" لننتقل إلى العاصمة، شكرنا هذه العائلة كثيراً على مساعدتهم لنا، ووقفهم بجانبنا وأبنائي في عزِّ حاجتنا، ثم أكملنا مسيرتنا حتى نصل إلى العاصمة الشرقية، حيث نستطيع أن نستخرج منها الجوازات الجديدة.

في العاصمة كان لنا أقرباء كثر، وهناك مكثنا في منزل أحد معارفنا في الأيام التي سنقضّ فيها إلى أن تجهز جوازاتنا، ونصبح مستعدّين للسفر، وفي ذلك الوقت كنا قد اتفقنا مع أحد معارف يوسف؛ ليدبّر لنا أمر استخراج الجوازات، جاء ذلك الرجل الذي لن أنسى شكله ما حييت، طلب مني مبلغاً كبيراً جداً، وبالمقابل أكد لي أنه سيحصل على الجوازات في وقت قصير وسنكون مستعدين للسفر



في أقرب وقت.

كنتُ امرأة في عمر الحادية والعشرين.. جميلة.. وحيدة وغريبة، وليس معي رجل؛ بل معي أربعة أبناء أتحمل مسؤوليتهم، كنت أريد أن أتعلق بأي طوق نجاة يساعدي لينتهي هذا الكابوس، وأستطيع السفر إلى زوجي بسرعة، أما "مسعود"، فقد كان كلامه مقنعاً جداً، وثقته بنفسه عالية، وبما يقول مما طمأنني، وجعلني أدفع له ما يريد، "خمسون ألف جنيهه" دفعتها له دفعة واحدة دون أن أخذ منه أي ضمانات، سوى كلامه المعسول، وطمأنته لي.

منذ اليوم الذي أعطيته المبلغ، اختفى "مسعود"، ولم أستطع أن أجده، كنت أسأل الناس عنه.. عن مكان عمله، أو سكنه، ولم يكن أحد يعرف عنه شيئاً، مرَّ الأسبوع الأول، والأسبوع الثاني دون أي خبر، كنتُ أخذ عبد الله معي في كل صباح تاركةً بقية الأطفال في المنزل؛ لأخرج وأبحث عن "مسعود" في الأسواق والشوارع، ولكن دون جدوى، وبعد فترة من الزمن لم أعد أستطيع أن أبقى في منزل معارفنا أكثر من ذلك، فقررت أن أبحث عن مكان أستأجره لي ولأبنائي إلى أن نعرف ماذا سنفعل، وأين سنذهب.

ساعدي بعض أهل الخير، وفي الوقت الذي أرسل لي يوسف مبلغاً إضافياً استأجرت منزلاً صغيراً لي ولأبنائي، إلى حين أعرف كيف أتصرف، وبعد أكثر من شهر تقريباً، دقَّ "مسعود" باب بيتي، تهلَّلتُ أساريري بعد أن كنتُ قد فقدتُ الأمل في أن يعود هو، أو مالي الذي أخذه، أدخلته البيت، وبدأ بالشكوى من صعوبة الحياة، وكيف أن الاحتلال جعل أبسط الأمور مستحيلة، كنتُ مجبرة أن أستمع لكل ما



يريد قوله، فأموالي معه، وأنا التي أحتاج مساعدته... قلت له متلهفة على معرفة الحقيقة:

- "ماذا حصل في موضوع جوازاتنا يا مسعود؟"

- "يا حبيبة، ألم تسمعي كل ما قلته لك؟ الأمر صعبٌ جداً، وليس بالسهولة التي تظنيها أنتِ ويوسف.!"

كانت المرة الأولى التي يناديني فيها رجلٌ غريبٌ باسمي، وليس بأُم عبد الله، انتفضتُ من مكاني أنادي ابنيَّ عبد الله وعيسى ليخرجنا، ويجلسا معنا في الصلاة، شعرت بعدم الارتياح، وأن نواياه لم تكن - مجرد - مساعدتنا، استعذت بالله من الشيطان، وقلت له: - "نحن نعرف أنه ليس بالأمر السهل، ولهذا طلبنا منك المساعدة أنت بالذات؛ لأننا نعرف أنك قمت بهذا العمل مرات عديدة من قبل."

- "نعم، ولكن ليس في كل مرة تسلم الجرة!"

- "ماذا تقصد؟" بدأتُ بالخوف من كلام مسعود، وأنه بالفعل يتهرَّب من مساعدتنا.. قال مطمئناً إياي:

- "لا تقلقي، سأحاول فعل ما أستطيع، إلا أنه سيأخذ الأمر وقتاً أطول."

سكتُ قليلاً، وقمت من مكاني، وأخذتُ أكواب الشاي من أمامه؛ لأعلن أن هذه الزيارة قد انتهت:

- "حسنًا، لا بأس إن كنت بحاجة إلى بعض الوقت؛ ولكن عليك أن تعرف أنني لن أستطيع أن أدفع كل هذا الإيجار لفترة طويلة، قدِّر وضعي، وأني غريبة هنا."



قام من مكانه، وقال: "سنرى ما سيحدث، سأراكم في وقت لاحق".

خرج، وأغلقت الباب خلفه، وأخذت نفساً عميقاً، شعرتُ بالضيق الشديد في وجوده، لا أدري كم من الوقت سأستطيع تحمُّله وهل بالفعل سيفي بوعده، أم أنه يريد فقط أن يتردّد عليّ بين الوقت والآخر!

وبالفعل، كان كما توقعت، كان "مسعود" يعود بعد شهر، أو شهرين من الاختفاء ليقول لي إنه لم يحصل على الجوازات، وإنه علينا الانتظار إلى حين آخر، وفي كل مرة يأتي لي بعذر جديد ليماطل أكثر، وبدلاً من أن تنتهي هذه السفارة بعد أسابيع، مرّ علينا تسعة أشهر، ونحن ننتظر مساعدة مسعود بعد أن أخذ منا كل ما نملك.

ولكن في ذلك الوقت، كان لنا أقارب هم أيضاً هربوا من قرينتنا، وينتظرون الفرصة التي ستسمح لهم بالسفر، مجموعة من الشبان، ومن ضمنهم أخي الصغير الذي لحق بي بعد أن عرف بأمر هروبي، وسكني في العاصمة الشرقية.

اضطرت إلى أن أسمح لهؤلاء الشبان بالمكوث معي في المنزل الذي استأجرته، ونتقاسم جميعنا إيجار هذا المنزل الصغير، وتشاركنا جميعنا الإيجار والطعام والشراب، لم يكن بالأمر السهل أبداً أن أفعل ذلك، ولكن ما باليد حيلة، لم تكن لنستطيع تحمُّل الإيجار، وتكلفة المعيشة وحدنا ونحن بلا عمل، ولا مصدر دخل ثابت. أخبرت أخي عمّاً فعله المدعو "مسعود"، وأنه أخذ مني مبلغاً كبيراً دون أن ينجز لي ما طلبت، اشتعل أخي غضباً، وراح يبيجث عنه



كلَّ يوم دون جدوى! كان "مسعود" يعرف كيف يختفي، ومتى يظهر، اعتدنا على أن نترك الأطفال في المنزل، فالشبان يعرفون كيف يقضون وقتًا ممتعًا مع

عبد الله وعيسى، وكنت آخذ الفتيات خوفًا عليهن مع أخي، ونذهب إلى السوق والتجمعات، نسأل من نراه في طريقنا عن "مسعود"، نطرق أبواب المنازل طلبًا في المساعدة، إلى أن وصلنا بعد عناء، حيث دلّنا أحد مالكي الأكشاك الشعبية الصغيرة أنه يعرف أين نستطيع أن نجد مسعودًا.

أخذ أخي بقية الشبان، وذهبوا إلى حيث دلّهم الرجل، وانتظرتهم اليوم بكامله أدعو الله أن يعودوا سالمين دون أن يتسببوا بمشكلة تكشف أمر هروبنا، وتذهب كل تلك الأشهر هباءً منثورًا، فلم يعودوا في صباح اليوم التالي، ولا الذي بعده، بقيت في منزلي مختبئة؛ خشية أن يكون قد كُشف أمرنا؛ وبعد ثلاثة أيام من الاختفاء، عادوا جميعًا سالمين.

أخبرني أخي أنهم وجدوا مسعودًا، وبعد أن تأكدوا من أنه لن يفيدنا في شيء، لقنوه درسًا لن ينساه جزاءً لما فعله معي؛ ولكنهم لم يستطيعوا أن يرجعوا لي نقودي، فهم لا يملكون أيّ دليل ضده، انتهى أمر مسعود دون أن يعود عليّ بأيّة فائدة؛ بل ضاع علينا وقت لن نستطيع أحد أن يرجعه لي، ذهب أخي ومن معه ليسألوا هنا وهناك عن الطريقة التي نستطيع فيها الحصول على جوازات جديدة نستطيع أن نسافر بها، وبعد أن سألوا أكثر استطاعوا أن يصلوا إلى أحدهم، فهو يعرف ضابطًا في الجوازات ومن الممكن أن يساعدنا لو عرف



قصتنا .

ذهبتُ بنفسِي مع أخي إلى ذلك الضابط، وقصصتُ عليه قصتي، وأني أمُّ لأربعة أولاد، وكل ما أريده هو أن أذهب، وأعيش مع زوجي، وهذا أخي معي ليساعدني، وأخبرته عن مشقة السفر التي تحمَّلتها حتى أصل إلى هنا، ومعاناة المعيشة هنا وأني لن أتوقف حتى أستطيع السفر لزوجي.

شعرت بالإذلال لأول مرة في حياتي، كنت سأقول أي شيء فقط لأقتع الضابط بأن يساعدني، فقد سئمتُ هذا الوضع.. سئمتُ من طلب المساعدة من القريب والغريب، سئمتُ الشعور بأنني بحاجة إلى مَنْ حولي، لقد مرَّ على أمر هروبي قرابة عام، وأنا وأبنائي نتنقل من بيت إلى بيت كالمشرَّدين، لقد ضاعت عليهم سنة دراسية كاملة، وأنا التي كنت أريد أن أهرب معهم؛ ليحصلوا على أفضل تعليم، وبالمقابل، ضاعت عليهم سنة من عمرهم دون أن يفعلوا أي شيء سوى المشي خلفي من شاحنة إلى بيت والوقوف في طوابير الصرافين والمخابز.

نظر إليَّ الضابط، ثم ابتسم، وقال: " لا تقلقي يا أم عبد الله، الدنيا لا زالت بخير".

تنهَّدتُ، وأمسكت بيد أخي، وحمدتُ الله كثيراً أن وضع هذا الضابط في طريقنا، ومن هنا بدأت الأمور بالتيسير الواحدة تلو الأخرى، وحصلنا على جوازاتنا، ولم يتبقَّ إلا أن نحجز طائرة ونسافر، كان معي مبلغٌ من المال؛ ولكن نقصني قرابة ٣٠٠٠ جنيه، ولم أعد أملك ذهباً لأبيع لا أنا ولا بناتي، ولم أكن أريد أن أنتظر حتى أطلب من "يوسف" ليرسل لي، فقررت أن أذهب، وأطلب من إحدى



معارفنا التي استضافتنا في لياينا الأولى في العاصمة.. إنها "أم عبد الرحمن"، حيث لم تردد للحظة هي الأخرى بإعطائي ما طلبتُ، ووعدها بأن أعيد لها المبلغ حالما أصل إلى هناك. قالت:

- " لا تقلقي يا حبيبة، الناس للناس، وأنا متأكدة من أنه لو كنتُ أنا التي احتجتُ منكِ لما ترددتِ في مساعدتي، رافقتكم السلامة".

شكرتها كثيراً، ثم ودعتها، وذهبتُ دون أن أضيّع أيّ وقت، وحجزتُ ٦ تذاكر سفر إلى رأس الجبل في أقرب رحلة، كنتُ أرتجف في المطار طوال وقت التفتيش من أن يحصل شيءٌ يعيق سفرنا، ويعيدني من حيث أتيت، بقيتُ أردد دعاء: ( وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمَنْ خَلْفَهُمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ) [يس:٩]، وبمعونة الله وحده، ركبنا الطائرة لأول مرة في حياتنا، ولم أتنفس الصعداء إلا حين شاهدتها ترتفع عن الأرض، ودعتُ بلادي، وأنا أعرفُ ألا رجعة لها، ودعتُ أصعب رحلة مرّت عليّ، ودعتُ أم عثمان، وأبو صالح، وأم عبد الرحمن، ودعتُ كل ما مررتُ به في هذه السنة لأبدأ بعدها مرحلة جديدة لا أعلم ما تخفيه لي.

\*\*\*\*\*

## حياة جديدة

التمّ شملنا أخيراً، وبدأت حياتنا الجديدة في رأس الجبل، وعدتُ إلى أحضان عائلتي من جديد بعد سنوات العزوبية والوحدة، ومن اللحظات التي لا تُعوّض، كانت عودتي إلى المنزل بعد يوم عمل شاق، وقد حضّرتُ لي زوجتي وجبة غداء بيديها بعد السنوات التي اضطررتُ فيها إلى أن أكل من مطاعم الآسيويين، والآن صرنا نجتمع معها وأطفالي حول المائدة شاكرين الله على كل النعم التي أنعمها علينا.

لم أنتظر طويلاً حتى ألحقتُ الأطفال بمدارس محلية، فقد فاتهم ما يكفي بسبب سفرهم إلى هنا، وبعون الله التحق أطفالي جميعهم بالمدرسة، وبدؤوا بالاختلاط مع أقرانهم بشكل طيب وهو من الأشياء التي دعوتُ الله أن تتحقق، فلم أكن أريدهم أن يشعروا بأنهم غرباء، أو أقل مستوى من زملائهم.

ومن بعدها بدأت الأمور بالتيسير الواحد بعد الآخر، واستطاعت حبيبة - كعادتها - إدارة أمور معيشتنا، وكان ذلك صعباً في البداية، فالأمر هنا مختلفٌ بعض الشيء، مصاريفنا مختلفة، والحياة هنا أعلى ممّا اعتدنا عليه في بلادنا، ولكن استطعنا أن نتدبر أمورنا بما نستطيع وعلى قدر ما أجنبي.

تعرفنا على جيران طيبين، الأمر الذي سهّل على حبيبة



ساعات النهار الطويلة التي نتركها فيها، وقد أرشدتها الجارات إلى أماكن قريبة لشراء الملابس، وحاجيات المنزل ممّا أسعد حبيبة كثيراً.. ويومٌ بعد يوم، وشهرٌ بعد شهر يتلاشى إحساس الغربة من قلوبنا جميعاً، فلم نعد نشعر بأننا غرباء في المكان.

أنجبنا بعدها بنتين، وكما يقولون: (يأتي الأطفال، ورزقهم معهم)، فبعد فترة بسيطة من إنجاب ابنتي زهرة، ترفّعت في عملي، واستطعنا أن نتقل إلى منزل أكبر وفّرتة الشركة لي، وتحسنت أوضاعنا كثيراً، كنت دائماً أنظر إلى حالي.. أين كنت، وأين أصبحت، كنت طفلاً مشرداً لا بيت لي ولا عائلة، لا وطن ولا أصدقاء، واليوم أنظر لنفسي، لزوجتي وأبنائي، لبيتي، وعملي، ولا أستطيع أن أقول إلا: "الحمد لله".

\*\*\*\*\*



## الاتصال المنتظر

مرّت سنوات عديدة منذ هاجرنا إلى رأس الجبل، تحرّرت بلادنا، وأصبح حالها أفضل بكثير عمّا كانت من قبل، ولكني لم أفكر بالعودة مرة أخرى بعد أن استقررتُ وأبنائي هنا في رأس الجبل، لم أكن أريد أن أعود ونبدأ هناك من جديد، فقد تعبنا كثيرًا حتى وصلنا لما نحن عليه الآن، كما أننا اعتدنا على حياتنا هنا، وأصبح لنا أصدقاء، وجيران قريبون لنا كما لو كنا عائلة واحدة، عوّضونا عن أهلنا وأصدقائنا الذين تركناهم، ورحلنا عنهم.

كُبر أبنائي كما أردتهم، متعلمين، كلُّ له شخصيته المستقلة التي يستطيع بها الاعتماد على نفسه، تزوجت ابنتي الكبرى نعمة من صديق عزيز علينا، أما ابني الأكبر "عبد الله"، فقد أنهى دراسته الثانوية بعد عناء، فهو أكثر مَنْ أتعبني طوال فترة مراهقته، كنت لا أنام ليالي كثيرة، وأنا أراه يتسكع هنا وهناك مع مجموعة من أصدقاء السوء الذين تعرّف عليهم في مدرسته، كان لا يفارقهم دقيقة واحدة، يقضي معهم وقتًا أكثر من الذي يقضيه معنا ومع إخوته، فلم أستطع أن أرسله ليكمل دراسته الجامعية؛ لأنني لم أكن أملك المال الكافي لأرسله إلى جامعة خاصة ومعدله في الثانوية لم يكن يؤهله لدخول إحدى الجامعات الحكومية، كنتُ أرى مستقبله ينهار أمامي بالرغم من صغر سنّه، فهو لم يتجاوز الثامنة عشرة، وبدون عمل ولا دراسة، فيستطيع الفراغ أن يسيطر على الإنسان، ويدخله في متاهات وحُفْرٍ



هو في غنى عنها، بالذات إن كان هناك من يحثك على ذلك.  
كلمت جميع معارفي، ومَنْ حولي أن يساعدوني في أن أجد له  
وظيفة، أية وظيفة يشغل بها نفسه، ويبتعد عن أصدقاء السوء حوله،  
كنت أقسو عليه كثيرًا، بل إنني ضربته مرة، أو اثنتين؛ خوفًا عليه، وأنا  
أراه يُضَيِّع كل ما تعبتُ عليه أنا وأمه لنوصله لما هو فيه، كان مستهترًا  
جداً، كل من حولي كانوا يقولون لي إنه مراهق، والمراهقون كلهم  
هكذا، وإنه عليّ ألا أقلق عليه؛ ولكن لم أكن أستمتع لهم، فلم يمر أحد  
بما مررت به، ولم يعرف أحد المعاناة التي شعرتُ بها، فأقل ما كنتُ  
أستحقه أن يعوضني ابني عن كل ما فات، ولا يكون أصدقاؤه هم شغله  
الشاغل... يتسكع معهم.

لم يكن أمامي أي حلٌّ إلا حل واحدٌ لم أر غيره، وهو أن أزوجه  
حتى يكون لنفسه عائلة، وينشغل بها؛ حتى لا يهوي في الهاوية التي إن  
وقع فيها، فلن أستطيع أن أنقذه منها.

وكما توقعت، اعترض عبد الله كثيرًا؛ لأنه يريد أن يستمتع  
بحياته كما يقول قبل أن يرتبط، خفتُ عليه من ذلك التفكير.. خفتُ  
أن يضيِّع حياته ومستقبله من أجل أشياء لا وجود لها، وأن ينجرف  
خلف رفاق السوء وأفكارهم التي لا تبشِّرُ بأي خير.

جلستُ معه جلسات طويلة، وأخبرته أنه لا شيء يضاهي  
فرحة أن تكون بين زوجتك، وترى أبناءك يكبرون أمام عينيك، أخبرته  
كم تغيرت حياتي بعد أن وجدتُ أمه! كيف أنني معها فقط لم أعد أشعر  
بالينم والفقدان، كيف أن المرأة في حياة الرجل هي الحزن الدافئ،  
وهي مصدر الأمن والأمان، أخبرته الكثير عن عوض الله حين يرى

عبده قد اتّقاه، وفعل ما يرضيه، وأنه سيُسأل عن الوقت الذي أضاعه بدون فائدة، وبعد نقاشات طويلة جدًّا، وجدالات كنتُ قد فقدتُ الأمل في أن تنتهي، اقتنع أن نبحت له عن ابنة الحلال التي تتاسبه.

ببحثنا أنا وحبّية بين معارفنا وجيراننا، وسألنا أهلنا، ومن نعرف في بلادنا عمَّن لديه فتاة في عمر الزواج نستطيع أن نخطبها لعبد الله، وكانت المصادفة الجميلة أن صديقي القديم حسن، الذي وسَّطته - من قبل - في زواجي من حبّية، لديه ابنة جميلة في مقتبل العمر، عمرها مناسب جدًّا لعمر عبد الله.

وبدون تردُّد، أخبرتُ عبد الله أن (حسنًا) صديقي منذ زمن بعيد وهو كالأخ بالنسبة لي، ونحن لن نجد نسبًا أفضل منه، وأني متأكد من أنه قد أحسن تربية ابنته، فهو رجل متعلم ومثقف، وذو أخلاق عالية، ومن المؤكد أن ابنته كذلك، لم يعارضني عبد الله، ليس لأنه مقتنع، بل لأنه يعلم أنني لن أتركه حتى أفعل ما أظنه مناسبًا له، فانصاع لي بدون مقاومة، كنت أعرف أنه لم يكن مقتنعًا؛ ولكني مضيتُ في الأمر؛ لأنني ظننتُ أنني أعلم بمصلحته منه، وبالفعل ذهبنا لخطبة ابنة حسن.

تم الزواج، وكانت فرحتي لا تضاهيها فرحة، وأنا أرى ابني قد كَبُرَ وهو يتزوج أمامي، شعرتُ أن ما تعبتُ عليه طوال سنوات حياتي لم يذهب سدىً، وها أنا عشتُ وأنا أرى ابني رجلاً، وقد يصبح أبًا قريبًا.

\*\*\*\*\*



## اتصال غريب

وردنا اتصالٌ غريبٌ من والدة حبيبة، كانت تصرُخ من خلف الهاتف قائلة: "ما بال هاتفكم؟! لقد أمضيتُ يومي وأنا أتصل بكم، ولكن دون جدوى! أعطيني يوسف أكلمه الآن.."

- "ما الأمر يا أُمِّي؟ هل أبي بخير؟ هل جرى شيء لأخي؟".  
ظلت حبيبة تسأل السؤال تلو الآخر محاولة أن تجد تفسيرًا لصراخ أمها...

- "أين يوسف؟ هيّا ليس هناك وقت!".  
أعطتني حبيبة سماعة الهاتف، وعلامات الاستفهام تعلق وجهها..

- "ما الأمر يا عمتي! خيرًا إن شاء الله..."  
- "أحدهم يبحث عن محمد سالم من جديد، جاء إلى بيتك مرة أخرى، وعندما أخبروه أنك قد هاجرت، وتركت البلاد منذ زمن بعيد، أرسلوه إلى بيتي، فاستقبلتُ وعمُّك هذا الغريب، وسألناه عن سبب سؤاله عن محمد سالم في بيتك بالذات، فأخبرنا القصة نفسها.. لقد أخبروه أنك كنت تعمل في معسكرات المحتل منذ كنت صغيرًا، ولا بُدَّ من أنك تعرف شيئًا..."

- "وما الجديد يا عمتي؟! نحن نعرف هذا الكلام منذ زمن، وأخبرتكم أنني لم أر شخصًا مخطوفًا حين كنت هناك أعمل!".  
- "انتظري يا يوسف، ولا تقاطعني، قبل أن يرحل سألته إن كان



يعرف أي وصف من الممكن أن يساعده في عملية البحث، فقال لي: إن أم الطفل أخبرته أن لديه علامة ولادة تحت إبطه اليمين، فتذكرتُ تلك التي لديك، والتي ورثها عنك عبد الله في المكان نفسه! ومن هنا توقفتُ... توقفتُ عن التفكير، وبقيت أحاول الاتصال بكم، ولم أسمح له بالرحيل" ..

رमितُ سماعه الهاتف، وركضتُ إلى أقرب مرآة، أريد أن أتأكد.. أن أراها بأم عيني، العلامة الموجودة تحت إبطي اليمين كما قال ذلك الشخص، ماذا يعني ذلك؟! هل أنا محمد سالم؟ هل أنا من كان يبحث عني الشبان قبل سنوات وسنوات؟! أغلقتُ حبيبة سماعه الهاتف، ولحقت بي: - "يا يوسف، ما الأمر؟ أخبرني."

- "أظن أنني أنا محمد سالم يا حبيبة، الطفل الضائع منذ سنوات، أمي كانت ترسل كل أولئك الشبان للبحث عني قبل سنوات كثيرة"...

بكت حبيبة من الفرحة، والصدمة، والندم؛ لأننا لم نستفسر أكثر منذ سنوات، وبكيتُ معها لا أدري لماذا بالضبط، جميع المشاعر اختلطت عليّ، عجزتُ عن الكلام والتعبير، مشاعر لهفة لرؤية تلك الإنسانية التي أنجبتني، وشوق من معرفة أصلي ونسبي؛ وخوفاً من أن يكون كل ذلك مجرد وهم، لم أكن أدري ما العمل في تلك اللحظة، فقد توقفتُ تفكيري، ولكن كنت متأكداً من أنه عليّ أن أسافر سريعاً قبل أن يرحل ذلك الشخص لأعرف منه المزيد.

وبالفعل، وبدون أي تردد، حزمتُ أمتعتي وجميع مدخراتي،



وأخذت ابني معي ليؤازرنِي في هذه الرحلة..  
 أردتُ لحبيبة أن تأتي معي؛ لكنَّ عليها البقاء مع البنات،  
 سافرنا إلى بلادنا، كان قلبي يدقُّ بسرعة طوال الرحلة..  
 شعرت بأني طفل صغير مرة أخرى، وقد أرسل الله لي أُمي  
 من جديد بعد أن فقدتها منذ زمن بعيد.. وتساءلت: ماذا أقول لها إن  
 كتب الله لي ورأيها مرة أخرى؟ هل أرتمي بين أحضانها، وأقول لها  
 ما جرى لي طوال سنوات طفولتي؟ أم ألومها كيف تركتني، وأسألها  
 أين كانت طوال تلك السنوات؟!  
 كنت متوتراً، وخائفاً جداً ألا أكون ذلك الشخص المطلوب،  
 وتضيع جميع آمالي، وأمنيّاتي بقاء أُمي، أمسك بيدي ابني بعد أن  
 رأني أرتجف، وقال:

- " كل شيء سيكون بخير يا أبي لا تقلق "

- " أتمنى ذلك يا عبد الله، أتمنى "

وعندما وصلنا لم نضع أي وقت، وذهبنا لبيت أهل حبيبة،  
 كانت العودة إلى البلاد بعد تركها منذ سنوات طويلة غريبة عليّ  
 أنا وعبد الله، لم نعد نتعرف على أغلب الأماكن، فقد سُيِّدَت مدنٌ،  
 وهُدِمَت أخرى، ولكن بدا لي أن أهالي البلاد بحال أفضل ممَّا كانوا  
 عليها في أيام المحتل.

وصلنا إلى منزل والدِي حبيبة، وهناك أخبرنا أبو حبيبة أنه  
 قد اتفق على أن يأتي الرجل ليقابلني في مساء يوم وصولي، فانتظرناه  
 وجميعنا آذانٌ مترقبة صوت طرق الباب.. لُذْتُ أنا بالصمت، فلم  
 أستطع أن أتكلم مع أحد، لم أستطع أن أكلّم والد حبيبة، وأخبره عن



حال حبيبة والأولاد، ولا وضع عملي وأحوالنا المادية، ولم أستطع أن أشكر والدة حبيبة على الوليمة التي حضرتها لنا، لم أكن أستطع إلا أن أفكر في أن الباب سيُطرقُ بعد قليل، ومن سيدخل سيكون بيده طريقي إلى أمي وأهلي.

طال انتظارنا، وبعد ساعات طويلة طُرق الباب، وكأن الضربات كانت على قلبي! فتح عبد الله الباب، وإذا هورجل في مثل عمري، أو أصغر قليلاً، أسمر البشرة، قصير القامة، شديد سواد الشعر، ولا أكذب إذا قلت إنه إن رأنا أحدهم سيقول إننا شقيقان، أو سيقول إن عبد الله ابني هو ابنه:

- قال الرجل حين دخل: "السلام عليكم" ..

- رَدُّ والد حبيبة: "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، تفضل يا عبد القادر".  
سلمتُ عليه باليد:

- قال لي الرجل: "حمداً لله على سلامتكم".

ثم جلسنا جميعاً، وجميعنا أعيُنُ مترقبة لما سيقول الرجل المدعو عبد القادر، قدّم له ابني القهوة والتمر، وبعد أن انتهى قال: "أنا اسمي عبد القادر، جئتُ من (جزيرة الجنة) جنوب البلاد.. منذ ثلاث سنوات، وأنا أبحث هنا عن ابن خالتي الذي يدعى (محمد سالم)، أوصتني خالتي أن أبحث عن ابنها، ولا أعود إلى الجزيرة إلا معه، عملتُ في أماكن كثيرة طلباً للرزق، وطوال فترة مكوثي هنا وأنا أسأل، وأبحث لعلي أجد ابن خالتي الذي ضاع منذ كان طفلاً صغيراً، قالت لي خالتي: إن محمد لديه علامة تحت إبطه لا يمكن



أن تختفي، وإنَّ وجدته عليَّ أن أعود به إليها في أسرع وقت.  
انتهى عبد القادر من الكلام، فقمْتُ من مكاني، ورفعتُ  
قميصي أمام الحضور... اقترب مني عبد القادر ليرى بنفسه، وهنا  
احتضنني، وصرخ بأعلى صوته:

- " الحمد لله! الحمد لله! إنه أنت، أنت محمد الضائع! لو  
تعرف كم بحثنا عنك! كم من الناس أرسلنا ليجثوا، ويسألوا عنك!  
وكم من الأموال أنفقنا لنستطيع أن نجد خيطاً واحداً يدلنا عليك!".  
لم أستطع أن أتمالك نفسي، بكيتُ من الفرحة، لم أصدق أن  
لديَّ ابن خالة وهو الآن يقف أمامي، وفرحتي كانت لا توصف، إنه أول  
شخص أستطيع أن أسميه عائلة...

احتضنني ابني، وحمائي.. سلمتُ على حماتي وجميعنا  
فرحون، مبتسمون ومتحمسون ماذا بعد، ما العمل الآن؟  
هل نذهب جميعاً إلى الجزيرة الآن، لنقابل أُمي؟ أم ننتظر  
حتى نستمع إلى المزيد منه؟؟ كنت أريد أن أجلس معه ولا أنام، أستمع  
لما سيقوله لي، عن أُمي وأبي وعائلي، هل عندي إخوة وأخوات؟ أم  
أني وحيد؟ هل لديَّ أبناء عمومة وخالة؟ كيف تبدو هذه الجزيرة؟ وما  
شكل المكان الذي وُلِدْتُ فيه؟

\*\*\*\*\*



## جزيرة الجنة

"عبد الله"

لم أكن أعرف ما الذي كان ينتظره أبي إن وَجَدَ أمه بعد أكثر من أربعين عاماً، فهو لا يتذكر حتى اسمها، ولا أي شيء عن تلك الجزيرة التي وُلِدَ فيها، لم أفهم رغبته في العثور على أهله بعد أن ضاع عنهم كل تلك السنوات، كنت أعرف أنه من عائلة فقيرة جداً لم تكن تستطيع إطعامه حتى اضطرت الأم أن تضعه في معسكر المحتل لتأمين حاجاته الأساسية، فلمَ يريد العودة لذلك الماضي التعيس؟ مَنْ مِنَّا يريد العودة إلى أتس، وأصعب أيام حياته بعد أن تغيّرت حاله إلى الأفضل، وأصبح يستطيع أن يقلب تلك الصفحة، بل ويمزقها تماماً من كتاب حياته؟!

ولكن كان ذلك أبي، فلم ينسَ أي شيء من طفولته، بالرغم من صعوبتها، بالرغم من أيام تشرُّده، وتنقله بين المنازل، وعمله في شتى الأعمال وأبسطها، كان يحكي لنا عن قصة حياته كما قالوها له؛ لأنه كان صغيراً جداً حين ضاع، كان يحكيها لنا وكأنها بطولات يفخر بها، وليست صعوبات مشبَّعةً بشتّى أنواع الظلم، والحزن، والمشقة.

أنا ابنه الأكبر، أنا سبب مناداة الناس له بأبي عبد الله، أنا فرحته الأولى بعد نعمة أختي؛ والسبب الذي لن يختفي نسله من بعده، كان دائماً يقول لي: إنني يجب أن أنجب الكثير من الأبناء حتى يظلَّ



اسمه بين الأجيال لأطول زمن ممكن، أحب أبي، وأحب دائماً عدم خجله ممن يكون، مَنْ نسبه، ومَنْ أين ينتمي، ولكن بالرغم من كل ذلك، كنت أكره قسوته عليّ، كان يعطف على الغريب أكثر مني، يحنُّ على فقراء المسجد، ويأتي بهم ليتناولوا الطعام في منزلنا؛ ولا يستمع إليّ حين أطلب منه شيئاً لي، كان يكره دلال أُمي لي، رغم أنها كانت تدلني لتعوضني عن شدته عليّ.

- " أريدك أن تتعب في حياتك حتى يصبح لنجاحك معنى

يا عبد الله" ..

كنتُ أكره رغبته المتأصلة في رؤيتي، وأنا أخوض كل ما خاضه هو، أعمل، وأتعب، وأشقى حتى أتعلم كما تعلم هو، وحتى أجني ما جني هو، كان ذلك خلافتنا دائماً، يكره تسكعي مع أصدقائي، وقضائي ساعات طويلة خارج المنزل، يثور غضباً إن عرف أن أُمي أعطتني المال الذي رفض هو إعطائي إياه، وحين كبرت أرغمني على العمل، والزواج بعد فشله في إرغامي على إكمال دراستي!

كنت ضده في الكثير من الأمور؛ ولكني أرضخ دائماً لما يريد حتى لا تتصاعد المشكلات، والمشاجرات بيننا؛ ولأنني أعرف أنني سأحصل على ما أريد بدون أن يعرف بطريقة ما، فحين أجبرني على الزواج بعمر صغير، كان يظن أنه سيحرمني من أصدقائي، وفي المقابل استطعت أن أقضي معهم وقتاً أطول بعد الزواج دون أن يقول لي هو أي شيء، فقد فعلتُ ما يريد، ولم أعد الطفل الذي يستطيع التحكم بي.

سافرنا إلى مسقط رأس أبي ( جزيرة الجنة) .. حين وصلنا



إلى الشاطئ نزل أبي من القارب، ووضع يده على الرمال، ثم أخذ حفنة بيده، وقربها نحو وجهه وبدأ بشمها، كنت أنظر إليه باستغراب واستكثار، هل يظن حقاً أنه يستطيع تذكُّر رائحة رمال الشاطئ منذ كان في الثالثة من عمره؟! ولكنه استمر بالوقوف عند كل شجرة، وصخرة وجبل، والابتسامه تعلو وجهه، حتى عينيه كانتا متلائتين على غير العادة، وكأنه عاد طفلاً صغيراً إلى هنا.

- " سنستقل سيارة لنذهب إلى القرية، فهي تقع أعلى

الجبل".

قال لنا عبد القادر؛ ولكن أبي أجابه بأنه يريد أن يمشي على قدميه، استأثرت من ذلك، فالطريق كانت وعرة جداً، ورغم ذلك لم يستمع أبي لي؛ بل واصل مسيره وهو يستمع لعبد القادر يحكي ما حصل طوال السنوات التي مضت، قال له: إن الطريق الذي نمشي به الآن هو نفسه الذي كانت الأمهات يسلكنه لإحضار أبنائهن إلى المعسكر.. الذي يُنصب على الشاطئ، وكما لو أن أبي أراد أن يضع قدميه في المكان نفسه الذي كانت تمشي به أمه.

دون أن أشعر، عادت لي الذكرى حين كنا نمشي أنا وإخوتي وأمي في تلك الصحراء. عندما حاولنا السفر إلى أبي، تذكرت وعورة الطريق والأشواك التي تدخل بين أصابعي، تذكرت برودة الجو، والتعب والجوع الذي شعرت به ونحن نمشي، تذكرت كلمات أمي وهي تشجعنا على الاستمرار بالمشي بالرغم من بكائي المتواصل حتى أكثر من إخوتي الأصغر مني.



وها هي أم أبي هي الأخرى، كانت تمشي كل هذه المسافة يومياً - تلك التي لم أستطع تحمّلها أنا يوماً واحداً - حتى توفرّ لابنها الطعام والشراب، أراهن على أنها كانت جائعة هي الأخرى وهي تقطع كل هذه المسافة، ننسى أحياناً ما عاناه أبائنا وأمهاتنا.. ننساه لأننا لم نشعر به، فنحن كنا محميين تحت أجنحتهم، يشعرون بالضيق والخوف حتى نشعر نحن بالأمان والاطمئنان، يشعرون بالجوع حتى نشعر نحن بالشبع، دائماً هم هكذا، وإلا ليس هناك معنى لمقولة: "الجنة تحت أقدام الأمهات"، ولن يكون برّ الوالدين من وصايا القرآن للعباد.

وبعد مسيرة ثلاث ساعات أو أكثر، وصلنا القرية التي هي مسقط رأس أبي حيث وُلد، قادنا عبد القادر إلى البيت المنشود.. بيت جدتي أم أبي، وقبل أن نصل، صادفنا أحد القرويين يُسلم على عبد القادر، ويسأله عن سبب اختفائه لسنوات، أشار علينا عبد القادر قائلاً: "غبت كثيراً، ولكنني عدتُ ومعني البشارة لخالتي، لقد وجدتُ محمّداً، وجدتُ ابن خالتي محمّداً الضائع وها هو معي وابنه"..

اختلفت ملامح الرجل أماننا، وبدل أن يُقبل ليسلم علينا أمسك بيد عبد القادر وأخذه جانباً، وهمس في أذنه بشيء جعل عبد القادر يجثو على ركبتيه ويصرخ باكيًا، فيما بقيتُ أنا وأبي واقفين ننتظر أحداً يشرح لنا ما الذي يحصل أماننا.

نظرتُ إلى أبي، وقد برقت عيناه بالدموع، فسألته:

- "ما بك يا أبي؟ هل سمعتُ ما قاله الرجل؟"

- "أظنني تأخرتُ يا عبد الله، ولم يكتب لي الله رؤية أُمِّي

قبل أن يأخذها إليه.."



تسمّرتُ في مكاني، لم أعرف ما الذي يجب أن أفعله، لقد فارقت أم أبي الحياة قبل أن تراه، قال الرجل: إنها تُوفيت قبل ثلاث سنوات فقط.. تُوفيت وهي تطلب من كل من حولها، وتوصيهم بأن يستمروا بالبحث عن أبي ويخبروه بأنها لم تتسَّه ولو للحظة، وقد قتلها الإحساس بالذنب بأنها السبب في ضياعه.. أخبرنا أهل القرية كم أرسلت مراسيل ليبحثوا عنه! وكم دفعت من أموال حتى تجده! كيف أنها كانت ترفض أن يقول لها أي أحد أن محمداً قد مات، وأن عليها أن تتوقف عن البحث، فلا جدوى من ذلك.

\*\*\*\*\*



## أخي ومسقط رأسي

شعرتُ بالذنب؛ لأنني لم أسأل أكثر الشبان الذين كانوا يدقون باب منزلي، كم تمنيتُ لو أن يعود بي الزمن ثلاث سنوات فقط لأراها، ولولمة واحدة فقط أخيرة، ألمس يدها، أقبل رأسها، أخبرها بأني في أحسن حال؛ بسبب دعائها المستمر، وأن عليها أن ترتاح، ولا تؤنّب نفسها أكثر، أريد أن أخبرها بأني اشتقتُ لها، وأني أيضاً لم أنسها أبداً، وكم كنتُ أدعولها هي وأبي بظهر الغيب أن يحفظهما ويحميهما. كان الحزن الذي شعرتُ به في لحظتها أكبر من أيّ حزن مرّ عليّ في حياتي كلها.. حتى إنني لم أستطع أن أبقى في المكان، طلبتُ من عبد القادر أن يعيدنا من حيث أتينا، فلا فائدة من بقائنا هنا أكثر.

مسح عبد القادر دموعه هو الآخر، وقال: "كلا يا يوسف، إن لك أخاً يجب أن تراه، وتتعرف عليه، ولك ميراث يجب أن تطالب به". وكأن الشمس أشرقت من جديد.. أخ.. إن لي أخاً شقيقاً من أبي وأمي، يربطني أنا وهو الدم نفسه، "كان يجب عليك أن تقول هذا من قبل يا رجل ولا تتركنا محطمين هكذا هيا بنا خذني إليه، خذني إليه الآن..."

وبدون أيّ تردد، أو انتظار انطلقنا أنا وابني وعبد القادر إلى حيث يسكن ابن أُمي (أخي) كان له مزرعة وبيت صغير قرب الجبل، ذهبنا إليه فوجدنا طفلاً صغيراً يركض حول الحشائش، لا بد من



أنه ابن أخي - قتلها في نفسي - كانت مشاعري جياشة، وقلبي يدق بسرعة من اللحظة التي وجدتُ بها ابن خالتي عبد القادر، وحتى الآن، فأنا أرى ابن أخي أمامي، إحساس العائلة شيء عظيم، ارتباط الدم لا يعوّضه أيّ ارتباط، فالروح واحدة، والرابطة واحدة.

تقدّم منا الطفل، وارتمى بين أحضان عبد القادر صارخاً "العم عبد القادر وصل! العم عبد القادر عاد..."

وبعد أن انتهى الاثنان من السلام، أمسك عبد القادر الطفل،

وقال:

- " تعال يا عمر، وسلّم على عمك يوسف "

- " ولكن ليس لي أعمام غيرك .. "

- " إنه عمك يا ابني، عمك أخو أبوك!! "

- " عمر، عمر " سمعنا أحداً ينادي، ثم أجابه عبد القادر: "

تعال يا نوح، تعال يا ابن الخالة .. "

اقترب الرجل الذي هو أخي.. رأيت وجهي أمامي، يشبهني

في كل شيء، ملامحه، طوله، لون بشرته كل شيء، بل وحتى مشيته،

ابتسمتُ في وجهه... اقترب منّا أخي المدعونوح...

" مَنْ الرجل؟ " قال ماداً يده لي بيادرنى السلام..

نظرتُ إلى عبد القادر، ثم إليه...

لقد مرّ وقت طويل يا ابن أمي، أنا لا أذكر حتى أن لي إخوة..

دمعتُ عينا الرجل أمامنا، وأخذني بين أحضانه، متمتماً: " الحمد

للّه، الحمد لله، الحمد لله أنك بخير..."

أخذنا أخي إلى منزله، وقام بذبح عجولين، وخرّوف



استقبالاً لنا، احتفلت القرية جميعها بي، وبابني وبعودتي سالمًا، كنتُ سعيدًا أني عدتُ إلى مسقط رأسي هنا حيث وُلدتُ، ولكن ينعصر قلبي حزنًا كلما قال لي أحدهم: "يا ليت أمك هنا اليوم، كم تألمتُ وبحثتُ عنك طوال السنين!"...

إلا أنني كنت أنظر لأخي، وأفرح أن عندي جزءًا منها، وأنَّ الله عوّضني به وبأولاده بدلاً عنها.

جلس أخي بجانبني قائلاً: "إنني أكبر منك بثلاث سنوات، كان أبي قد أخذني للعمل معه في ذلك اليوم المشؤوم، لم تعد أُمي كما كانت منذ ذلك اليوم، كانت تخرج طوال اليوم، ولا تعود إلا بعد غياب الشمس، تجلس لساعات طويلة أمام الساحل تتمنى لو أنها ترى سفينة قادمة بك، لقد أوصتني إن وجدناك يومًا ما أن أحكي لك ما حدث، ولماذا لم تأت في ذلك اليوم لتأخذك وتعيدك إلى المنزل.

في اليوم نفسه الذي تركتُك في المعسكر، عادتُ إلى المنزل، وجميع القرية مجتمعة في منزلنا، والخوف والحزن يملأ ملامحهم، لقد وقع أبي أثناء عمله، وكُسِرَ ظهْرُه كسرًا أبقاه في الفراش سنوات إلى أن توفِّي، وفي ذلك اليوم لم تكن تعرف كم من الوقت مضى، ومتى غابت الشمس، ومتى أشرق من جديد، حادثُ أبي أبقاها بجانبه؛ لأنه بقي غائبًا عن الوعي خمسة أيام متتالية دون أن تعرف ما إذا كان سيبقى حيًّا أم سيموت، حتى أنا لم أكن أعرف ماذا علي أن أفعل.. حادثُ أبي أجبرني على العمل في الأرض وحدي مع أنني كنت صغيرًا في العمر، ولكن لم يكن باليد حيلة، وبعد يومين تذكرتُ أُمي أمرُك، وأنك كنت في المعسكر، ركضتُ وركضتُ معها كالمجانين، وحين



وصلنا كان الساحل خاليًا، لم يعد العسكر هناك، كل ما وجدناه كان رمل الشاطئ، وشراشف قديمة، وصناديق وقوارير فارغة، فقط، اختفت الخيمة، والجنود، اختفوا جميعهم، ولم يبقَ لهم أثر، ركضتُ أمي في اتجاه البحر حتى سحبتُها أنا، وأعدتها إلى الشاطئ، ارتمتُ أرضًا تضرب الرمال بيدها قهراً عليك، وكيف نست أمرك، حاولتُ أن أهدئها دون جدوى، لم تعد معي في ذلك اليوم، بقيتُ على الشاطئ طوال الليل، حاول الكثيرون من أهل القرية إعادتها دون جدوى، لقد صنعتُ لنفسها معسكرًا هناك على أمل أن تعود، كنت أذهب إليها بالطعام في فجر كل يوم، ثم أعود لأعمل في الأرض، وأبي في المنزل طريح الفراش، بقيتُ هناك أسابيع إلى أن تدهورت حالتها الصحية، وأعدناها هي الأخرى إلى المنزل، لقد تشتتت عائلتنا، ولم نعد كما كنا قبل ذلك اليوم.

بفضل الله ومساعدة أهل القرية لنا استطعنا أن نعيش، ونكمل حياتنا، أما أمي، فكما قلتُ لك، لم تعد كما كانت، وحين كانت تسمع خبر أيِّ مسافر كانت تبيع ما تملك، وتعطيه المال لبيحث عنك؛ ولكنهم جميعهم يرجعون بدون خبر..

- "لأنهم كانوا يبحثون عن (محمد سالم)، وأنا لم أعرف نفسي اسما سوى يوسف." قاطعته أسفًا...  
ربتُ على قدمي مطمئنًا: "حمدًا لله أنك حيٌّ تُرزق، وبخير وعافية يا أخي.."

لقد بقينا في القرية بضعة أيام، تعرفتُ على زوجة أخي وأبنائه، أخبرني أن أمي كتبت البيت من نصيبي، والأرض من نصيب أخي، وأخذتُ من أخي ميثاقًا - وهي على فراش الموت - على أن يبقى



يبحث عني.

"أنا عندي منزلي، والأرض تجني لي ما أحاجه، الآن وقد عدت يا ابن أُمي، فمَنْزِلُ العائِلةِ لك، لتفعل به ما تشاء." .  
 في المرة الأولى من حياتي أشعر بأنني أملك شيئاً باسمي..  
 لي أنا، شعرتُ برحمة ربي، وإرادته المتواصلة في مواساتي، أصبح لي مَلِكٌ خاصٌّ، كنت في ذهول شديد، ولم أستطع حتى أن أشكر أخي..  
 - " منذ أن أصبح المنزل خالياً، بعد وفاة أُمي، والكثيرون يطلبون مني شراءه، فإذا أردتُ بيعه أستطيع أن أدلِّكَ على أفضل شار، أعرف أن لك حياةً هناك في رأس الجبل، وستفضل أن يكون لك منزلٌ خاصٌّ هناك بدلاً من هنا".

- " أصبَتَ يا أخي، لقد قرأتَ أفكارِي بالتحديد، أعتقد أني أريد بيعه؛ لأشتري لنفسي وعائلي منزلاً هناك في رأس الجبل، وسنزوركهم هنا بالتأكيد".

ودعنا الجميع في (جزيرة الجنة)، أخي وعائلته وعبد القادر، وعدتُ وعبد الله إلى رأس الجبل، كم فرحتُ حبيبة حين قصصتُ عليها ما حصل! وفرحت أكثر حين عرفت أنه سيكون لدينا المال الكافي قريباً بمجرد إنهاء أخي عملية بيع المنزل الذي تركته أُمي لي، لنشتري بيتاً خاصاً بنا، ونرتاح من همِّ الإيجار كل شهر.  
 حمدنا الله كثيراً على نعمه التي يرسلها لنا الواحدة تلو الأخرى، وجزانا على صبرنا، وتعبنا منذ جئنا إلى هذه الدنيا.

\*\*\*\*\*



## لا تيأس.. أبداً

عبد الله

منذ اليوم الذي عدنا فيه من (جزيرة الجنة) وكان أبي قد وُلِدَ من جديد، أصبح إنساناً آخر، أكثر ابتهاجاً وكلاماً، يتصيد الفرص ليقصص علينا قصص ماضيه، ذكريات متقطعة عن أمه التي لا أعرف كيف له أن يتذكرها وهو يقول إنه افترق عنها وعمره حوالي ثلاث، أو أربع سنوات! ولكن ذلك كان أبي، يريد أن يصدق أنه يتذكر أمه بأي شكل من الأشكال، وأن له ماضياً غير ماضي البؤس والشتات الذي عرفه هو من جميع الذين كانوا حوله، وأن له عائلة وأهلاً يهتمون لأمره، ويهتم لأمرهم، حتى أنه بدأ بإرسال مبلغ شهري لأخيه وعائلته كمساعدة منه لهم، وفي الأعياد والمناسبات كان يرسل لهم ما استطاع من ملابس وتموين، بالرغم من عدم حاجتهم! كان يشعر بالمسؤولية تجاههم، ربما كان يريد أن يملأ شعور اليتم الذي عاشه لفترة طويلة بتوطيد علاقته بهم بكل الطرق.

وبعد أن أثبت أننا ننتمي لجزيرة الجنة، تم تغيير اسم أبي في أوراقنا الرسمية، ولم يُغيّر أبي اسمه كاملاً إلى "محمد سالم"، وأبقاه "يوسف سليمان"؛ لأنه الاسم الذي يعرفه الجميع به، والذي يعمل به هنا في رأس الجبل، فلم يرغب بإحداث أي توتر من الممكن أن يؤثر على وظيفته هنا، وفي الحقيقة أنه الاسم الوحيد الذي يعرفه طيلة حياته، فكيف له أن يغيّره بعد كل هذا العمر، ولكنه أضاف اسم القبيلة



"الجزراوي" لجوازه وجوازاتنا معه كإثبات بأننا من (جزيرة الجنة).  
كم كانت فرحة أبي لا توصف حين أصبح له اسم قبيلة تتطابق  
مع اسم أخيه! كنا جميعنا سعداء بهذا التطور في حياتنا، فأبي دائماً  
كلما واجهته مشكلة في العمل، أو غيره، أو واجهت أحداً فينا كان يقرأ  
علينا الآيات: "وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ  
لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ  
جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا"، وها هو الله قد استجاب دعاءه، ورزقه  
من حيث لا يحتسب، وكان ذلك بالنسبة لنا هو الإيمان بعينه.

وحين كنا نتذمر من صعوبة الحياة، أو حين لم أحصل على  
وظيفة حين احتجنا ذلك، أو حينما تقدم العمر بأختي، ولم تتزوج،  
كان يقول ويكرر: أن الله قد قدر لنا أرزاقنا من قبل أن نُولد، وكل ما  
طلب الله منا هو أن نعمل ونتقيه في كل ما نعمل، وسيمنحنا رزقنا في  
الوقت الذي يراه هو مناسباً لنا، وليس الذي نراه نحن مناسباً.  
لم يكتف رب العالمين بمكافأة أبي بإيجاده أهله ونسبه، بل  
كان هناك أمر أعظم ما زال مخبئاً لنا لم نكن نستوعبه، ولا ما لم  
نتوقع حصوله البتة.

بعد حوالي سنتين من زيارة الجزيرة، جاءنا اتصال من العم  
عبد القادر يطلب منا لقاءه، حيث يسكن في مدينة قريبة منا، حيث  
استقر هو الآخر في رأس الجبل، أصرّ أبي أن أذهب معه، وبالفعل  
ذهبنا إليه، وبعد غداء مفتخر قال لنا عبد القادر: "لدي شيء مهم  
أقوله لكم.. الآن وقد أثبت أصلك ومن أين تنتمي، لا يجوز لك أن  
تعيش على أنك مغترب يا يوسف."!



- "ماذا تقصد يا عبد القادر؟ قلتُ لك سابقاً إن بناتي يدرسون هنا، وابني متزوج، ونحن نعيش في حالة مستقرة هنا، فأنا لا أنوي السفر، أو الهجرة مرة أخرى لأيّ مكان آخر..."

ابتسم عبد القادر، وهزّ رأسه بالرفض: "لا أطلب منك السفر إلى الجزيرة، فلن تستطيع الحياة هناك، وقد اعتدت على حياة المدينة، بل أقول لك إنك تستحق أن تحصل على جنسية رأس الجبل، أنت تنتمي أصولك لقبيلتنا، وقد أثبتنا ذلك رسمياً، وزعيم القبيلة الكبير هنا في رأس الجبل، فتستطيع ضمّ اسمك إلى القبيلة، وبالتالي تصبح مواطناً رسمياً لرأس الجبل، هذا ليس كلامي، هو حقك فقط!"

تبيّست أطراف أصابعي، وبدأت ضربات قلبي بالتسارع، وأنا أسمع كلام عبد القادر، أيعقل هذا حقاً، أيمن لظروف إنسان أن تتغير هكذا في يوم وليلة؟!

قبل أقل من سنتين عرفنا أن أبي لديه عائلة، واليوم يظهر لنا أن البلاد التي هربنا إليها.. البلاد التي عشنا فيها مغتربين لأكثر من نصف عمرنا هي بلادنا في الأساس، بحكم القانون، كيف لذلك أن يكون منطقياً، كيف لأي عقل أن يصدق ذلك؟!

سرحنا بخيالنا أنا وأبي في ذلك اليوم، ونحن في طريق العودة، كل منا يفكر لو كان ذلك حقيقياً كيف ستتغير حياتنا، وحياة عائلتنا ومن بعدنا، كنا راضين كل الرضا بكوننا ننتمي لجزيرة الجنة، والآن نقول إننا من رأس الجبل، ولسنا مغتربين فقط، هل من الممكن أن يتحقق ذلك حقاً؟



كُنْتُ متشائماً كعادتي، لم أصدق ولم أُرِدْ أن أصدق؛ لأنه بالنسبة لي كان حلمًا بعيد المدى، وأنا كعادتي لم أكن حالمًا، أو متفائلًا كما كان أبي وأُمِّي، وفي المقابل.. أبي صدَّق بعقله وقلبه، وأصبح يبحث، ويسأل عن كل من له علاقة بجزيرة الجنة، يجلس في المقاهي، ويصغي لأحاديث الناس، ويخبرهم أنه أثبت أنه من جزيرة الجنة، فلم يصدقه الكثيرون؛ لأنهم ظنوا أنه يقول ذلك فقط طمعًا في جنسية رأس الجبل، الكل كان يعرف أن من كان ينتمي لجزيرة الجنة رسمياً ويسكن هنا في رأس الجبل، يحق له أن يحصل على الجنسية، والجميع كانوا يقولون: كيف ليوسف سليمان المغترب أن يصبح فجأة من أهل جزيرة الجنة، كيف ومتى؟ كذبنا الكثيرون، واتهمونا بالتزوير والتلاعب.

كُنَّا كلما وصلنا لأيِّ خيط يدلُّنا على طريقة نستطيع فيها أن نثبت أنه يحق لنا الحصول على الجنسية، نعود جارِّين أذيال الخيبة وراءنا في كل مرة.. حاملين معنا اتهامات، وسخرية لم نكن نتوقعها، فقدتُ الأمل، وتوقفتُ عن الذهاب مع أبي إلى أيِّ مكان يخصُّ هذا الموضوع، لم أعد أتحمّل وكان بالفعل بالنسبة لي حلمًا بعيد المدى، ولن يساعدنا أحد، فالجميع كان ينظر لنا بنظرة دونية، الجميع كان ينظر لأبي على أنه اليتيم الفقير الذي لا أصل له، ولا فصل، مهما حاولنا إقناعهم، فلن تتغير نظرتهم، فلم المحاولة؟! أما أبي، فلم يتوقف، ولم تهزَّ كل تلك الاتهامات شعرة منه، كان سيحصل على ما يريد مهما كلف الأمر بمساعدتي، أو بدونها.

\*\*\*\*\*



## بداية جديدة.. أخرى

### الأب

كانت كل الطرق مغلقة أمامي، حتى بدأ اليأس يتسلل إلى أعماقي؛ فأوقفتني حبيبة قائلة:

- " ما بك يا يوسف؟ من قال لك إن الأرزاق بأيديهم، إن أراد لنا الله الحصول عليها، فسنحصل عليها رغماً عنهم، أنت من علمتنا ذلك، فلا تياس..."

- " ولكن يا حبيبة، لقد قال لنا الله أيضاً أن نعمل ونحاول، وأنا عملت وحاولت؛ إلا أنه لا شيء يجدي، فأنا في نظر الجميع لزلت ذلك اليتيم عديم النسب.!"

- " لا يهم ما يظنون، لا يهم ما يقولون، الأهم أنك أنت تعرف من أنت، فليظنوا بك ما شاءوا".

لطالما كانت حبيبة الظهر الذي أتكى عليه كلما ثقل عليّ حمل الحياة، فلا أحد يقويني كما تفعل هي، ولا أستطيع أن أظهر ضعفي أمام أحد إلا أمامها؛ لأنني أعرف أنها الوحيدة التي ستحتضني بكل حب، وبدون أيّ مقابل، هي أمي التي حُرمت منها، وزوجتي التي لا أستطيع العيش بدونها.

أشارت عليّ حبيبة أن أتواصل مع عبد القادر، فالكل هنا يعرف عبد القادر وأصله ونسبه، ويعرفون أهله ومعارفه، وكلامه عني



سيثبت للجميع أنني لم أكذب، ولم أُزور، فأخذتُ بنصيحة زوجتي، وكلمتُ عبد القادر وطلبتُ منه أن يزورني، وينشر خبراً بين المعارف، ومن حولنا أنه اكتشف أنني ابن خالته، وأن أصلي ونسبي من (جزيرة الجنة) أباً عن جد، ولم أخلق تلك القصة لأغراض أخرى، وبالفعل كانت تلك المشورة هي التي أنقذتني، وأنقذت صورتي أمام الجميع، فلم أعرف يوماً بأني إنسان مادّي، وآخر شيء كنت أريده هو أن ينشر ذلك عني الآن، وبعد كل هذا العمر.

توقفتُ لفترة مغامرات البحث عن طريقة للحصول على تلك الجنسية، ليس لشيء، بل لأنني فقدتُ إحدى فلذات كبدي، ابني عيسى، كان فقدانَه كالصفعة التي أنستني طعم كل شيء جميل، وكأن جزءاً مني قد دُفن معه، ولم أستطع إرجاعه، بين يوم وليلة، أصبح عندي خمسة أبناء بدلاً من ستة، وولد وحيد بدلاً من اثنين، لم نعد كما كنا منذ فقداننا عيسى، لا أنا ولا حبيبة، لم أستطع أن أعزّيها، ولا أن أحتضنها؛ لأنني كلما فعلت، شعرتُ كأن فراغاً كبيراً يحيطني، كنت أعرف أنني مهما فعلت، فلن أستطيع ملء ذلك الفراغ، فكنت أهرب بعيداً.. بعيداً عنها وبعيداً عن كل ما يذكرني بعيسى، صارت عائلتي مشتتة الذهن في تلك الفترة، فقد كانت الصدمة أكبر علينا من أن نتحملها، كم تمنيتُ لو أنني لم أجد عائلتي وبيقي عيسى في حياتنا! كم تمنيتُ أن يأخذ مني الله أي شيء آخر ويعيد لي عيسى ابني! ولكن كان ذلك أمره وكان علينا الرضا بما قسمه، لم نستطع العودة إلى حياتنا الطبيعية بسهولة بعد تلك الحادثة، ولم تعد حبيبة هي حبيبة التي عرفتها، فالفراغ بقي موجوداً في عينيها، ولم تتمكن الابتسامات،



ولا الضحكات من إخفائه، لم تعد متفائلة كما كانت، ولم تعد قوية كما عهدتها منذ تزوجتها، فقدان عيسى كسر في داخلها شيئاً كبيراً لم تصلحه الأيام؛ ورغم ذلك فكلُّ منَّا كان يحاول أن يعود لحياته الطبيعية بكل ما يستطيع، فلم نكن نملك إلا أن نفعل ذلك.

انهمك كل منَّا في أعماله، أنا في عملي، حبيبة في أمور البيت والأولاد ودراساتهم وحتى عبد الله انهمك في دوامة عائلته، وزوجته وأطفاله، رضينا بما حصلنا عليه، ولم نطلب أي شيء أكثر، ومضت سنتان، أنجب عبد الله لنا حفيدة جديدة، وتزوجت ابنتي الكبرى، وأنجبت هي الأخرى حفيدة لنا، ودخلت البهجة على المنزل مجدداً بعد أن نسينا كيف نضحك ونفرح، كنت حين أقضي وقتي مع أحفادي أنسى الدنيا، وكل ما فيها، وأدعو الله مراراً وتكراراً أن يديهما عليَّ نعمة، ويحفظها من الزوال، فالأمن والأمان نعمة لن يعرف أحد معناها كما عرفتها أنا في صغري.

كنتُ أعرف كل المعرفة أن الله لن يخذلني، وأنه لولي نصيب في رزقٍ هو كتبه لي، فإنه لا يوجد مخلوق على الأرض يستطيع منعه عني، وهذا الإيمان نفسه كان يتوسط قلب حبيبة زوجتي.

في كل جمعة، اعتاد أبنائي على زيارتنا، وتناول وجبة الغداء معنا، فتأتي نعمة وزوجها وابنتها، وعبد الله وعائلته لنقضي نهار الجمعة معاً جميعاً، وبعد الوجبة الدسمة التي حضرتها لنا حبيبة مشكورة، تكلم عبد الله وهو يحتسي الشاي بقمة الهدوء:

- "أبي، لقد أخبرني أحد الزملاء في العمل أننا نستطيع أن نلتقي بشخص من (جزيرة الجنة) يسمونه "معرّف القبيلة"، يجلس



كل يوم إثنين ويوم الأربعاء في مكان في الشمال، ويلتقي بالأشخاص ليدوّن أسماء من يحق لهم الانضمام للقبيلة، ويحصلون على جنسية رأس الجبل، فما رأيك؟ هل نجرب حظنا؟ أم أنك يئستَ تماماً من هذا الأمر؟".

نظرتُ لابني نظرة استغراب وتعجب، كيف له أن يملك معلومة كذلك ويخبرني بها بكل هذا الهدوء واللامبالاة؟  
- "أعرفتني يائساً قط يا بني؟ لا يئأس من روح الله إلا القوم الظالمون، بالطبع سنذهب، ولم لا نذهب ماذا عندك لتخسرهُ؟".  
أجابني عبد الله: "مسافة الطريق بعيدة يا أبي، إنه يجلس في أقصى شمال رأس الجبل..."

- "والله حتى لو في بلاد أخرى، سنذهب ومعنا الله يساعداً ويعيننا، جهز نفسك، سنتحرك فجر الإثنين".  
رأيت في عيني حبيبة الأمل مرة أخرى بعد أن اختفت هذه النظرة من عينيها منذ زمن، كان هو نفسه الأمل الذي ملأ قلبي وعقلي، كان لدي شعور قوي أن الله لن يخذلنا، ولم يأخذ منا شيئاً إلا ليعوّضنا بشيء أفضل منه، ولم أكن أنام ليلاً، ولا نهاراً في انتظار فجر الإثنين، حتى أنني لم أنتظر عبد الله ليأتي؛ بل أخذت سيارتي، ومررت به، وانطلقنا إلى حيث العنوان المحدد.

بعد درب استمر ثلاث ساعات دون توقف، تخلله الكثير من الصمت والتهديدات، وكلمة "يا رب" يشبه كثيراً الصمت الذي كنا فيه أثناء زهابنا لأول مرة إلى (جزيرة الجنة)، لم أكن أريد التوقف لأرتاح، ولم أسمح لعبد الله بالقيادة؛ خوفاً من أن أتأخر، أو ألا أصل



في الوقت المناسب.

وصلنا إلى المنطقة المطلوبة، كانت منطقة صحراوية نائية، على طرفي الشارع بيوت شعبية قديمة.. أطفال يركضون، ونساء يحملن سلالاً يتقلن بين البيوت، لم نكن نعرف كيف نصل إلى الشخص المطلوب، أوقفنا السيارة بعيداً ومشينا على أرجلنا، نسأل كل من مرّ في طريقنا عن أوصاف الشخص الذي نبحت عنه، فتحن لا نعرف اسمه، ولا كيف نصل إليه، إلى أن دلنا شايب كان يجلس على دكة منزله، أخبرنا أن من نبحت عنه يجلس تحت شجرة أمام منبع ماء، اسمه أبو سلطان الجزراوي، واتجهنا في الطريق الذي دلنا عليه الشايب، وكما قال بالفعل، كان رجلاً كبيراً في العمر يجلس تحت شجرة على حصيرة قديمة، وحوله ثلاثة، أو أربعة رجال يتجادبون أطراف الحديث.

نظر إليّ عبد الله قائلاً: "هيا بنا يا أبي، لا يمكن لهذا الفقير المعدم أن يكون الشخص الذي نبحت عنه، ما عساه أن يفعل وهو لا يملك حتى سقفاً ليسكن فيه، هياً بنا لا نريد أن يستهزئ بنا العرب".. أمسكتُ بيده، وقلت "ما بك تستهزئ بالناس، وتحكم عليهم بمظاهره، لنكلم الرجل ونسأله، فماذا عندك لتخسره؟ وما أدراك؟ يضع سرّه في أضعف خلقه! ابق هنا إن لم ترغب في الذهاب، أما أنا، فسأذهب وحدي وأمري لله".

جرر رجليه ورائي، وسلمتُ على الرجال، وجلستُ أحكي قصتي لهم، أخبرتهم عن أصلي ونسبي، وعن عبد القادر وكيف وجدني، أخبرتهم بأنني أريد أن أكتب اسمي وعائلي، وأضّمهم إلى



القبيلة لعلنا نحصل على جنسية رأس الجبل.

وبكل هدوء وبساطة، أخرج الرجل كتاباً عتيقاً من تحت الوسادة التي كان يتكئ عليها، كتب اسمي كاملاً، وأعطيته نسخة من الوثيقة التي استخرجتها من (جزيرة الجنة) تلك التي كُتِب فيها اسمي واسم قبيلتي، ووضع الورقة بداخل الكتاب نفسه، ثم ابتسم لي، وقال: "قل يا رب، سيتواصلون معك إن كان هناك خبر".

في طريق العودة إلى منزلنا، تركتُ عبد الله يقود؛ لأن ذهني كان مشتتاً جداً ولن أستطيع القيادة، سرنا في جوف الصمت نفسه، لا نتكلم، بل كلٌّ منا يفكر في ما حصل للتو، كما أتمنى أن أضمن لعائلتي حياةً مستقرةً بلا خوف من المستقبل، كنتُ أقول يا رب بكل ما يملأ قلبي من إيمان لهم وليس لي، لا أريد لهم أن يتشتتوا من بعدي، لا أريد لهم أن يعيشوا مغتربين، ومشتتين بين بلدين، بلاد هربوا منها صغاراً، وبلاد لن تكون موطنهم للأبد.

أخبرتُ حبيبة بما حصل، وبناتي أمامي ينتظرون مني أن أقول أكثر، أو تكون لقصة الرحلة بقية، وكان ذلك كل ما في الأمر، لم يخبرني الرجل بأي شيء آخر، كل ما علينا فعله هو الانتظار فقط. ولكننا لم ننتظر طويلاً، كانت بضعة أشهر فقط حتى وصلني اتصال من مركز إصدار الجوازات في رأس الجبل يطلب مني الحضور شخصياً، فأخذتُ أفراد العائلة، وذهبنا جميعنا، وهناك بدأت إجراءات إصدار الجوازات المعتمدة، سلسلة غير متناهية من الأوراق المطبوعة، والبصمات والمقابلات، إلى أن جاء اليوم الذي استلمتُ عائلتي جوازاتها الجديدة وأصبح عندي كتاب للعائلة.. اسمي



مدرج فيه كربُ العائلة، ويليهِ زوجتي وأبنائي.

لو كنت كاتباً، أو شاعراً لاستطعت وصف شعوري في تلك اللحظة، شعور الفرحة الغامرة.. شعور الأمن والأمان بعد سنوات الخوف من الغد، شعور الاستقرار بعد الشتات، كانت تلك هي النقلة الكبرى في حياتنا جميعاً، تحسَّن مستوانا المعيشي كثيراً، ازداد مرتبي الشهري، وأصبحتُ قادراً على استئجار منزل أكبر لي ولأبنائي، استطاع عبد الله الالتحاق بكلية الشرطة والتخرج فيها ضابطاً مرموقاً، وحتى بناتي استطعن الحصول على مقاعد في الجامعات الحكومية، لقد تغيرت حياتنا جميعاً، كنت أنظر لأبنائي، وأدعوا لابني عيسى بأن يجمعني به الله في الجنة لأخبره بما حصل، وأفرحه بأننا حصلنا على ما كنا نبحت عنه.

بالرغم من كل تلك الفرحة، والرضا الذي كان يملؤني، كانت تلاحقني في كل ليلة كوابيس تقلق نومي، وتعيدني إلى نقطة الصفر في حياتي، إلى طفولتي والمعسكر، إلى ضرب العساكر لي، وقسوتهم عليّ، إلى خدمتي في بيوت الغرباء لأجل دينار أو اثنين، وإلى عيسى.. لا أدري لماذا لم أستطع التخلص من كل ذلك، وفي كل ليلة، أستيقظ غارقاً في عرقي، وحبيبة تمسح على رأسي، وتقرأ آيات القرآن عليّ حتى أهدأ، وأعود للنوم من جديد.

النهاية

